د. عائض القرني

على ساحل ابن تيمية

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض عبدالله

على ساحل ابن تيمية. ـ الرياض.

١٣٧ص؛ ١٤X ٢١ سم.

ردمك: ٠ ـ ١٨٢ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، ت٧٢٨هـ أ ـ العنوان

ديوي ٩٢٢,١١٧ ٢٤٢٠ / ٢٣

ردمك: ٠ ـ ١٨٢ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٤٢٠ / ٢٣

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـرس

الموضوع | الصفحة

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

من الذي عنده شغف بالمعرفة، وميل إلى العلم، وحب في الاطلاع، وهو لا يعرف ابن تيمية؟

من الذي لديه همة في المجد، وعزيمة في الخير، ورغبة في الصلاح، ثم لا يعرف ابن تيمية؟

هل الشمس بحاجة إذا توسطت السماء في يوم صحو أن ينبه على مكانتها؟ هل القمر في ليلة اكتماله والسماء صافية بحاجة لمن يشيد بعلوه وسنائه؟

إن ابن تيمية بلغ من الحظوة والرفعة وسمو المنزلة إلى درجة أنه استغنى عن لقب الشيخ، والعالم، والإمام، والمجدد، وصار أحسن أسمائه أنه: ابن تيمية!

عاشت بعض الدول خمسة قرون، ثم اندرست وذهبت فلا أثر ولا عين، ولكن هذا الجهبذ الأعجوبة بقي في ذاكرة

الزمان، وقلب الدهر، قصةً فريدةً محفوظة للأجيال ترددها الألسن، وتترنم بها الشفاه. عاش سلاطين، ووزراء، وأغنياء، وشعراء، ثم ماتوا، فماتت معهم آثارهم، وعاش ابن تيمية بلا إمارة ولا وزارة ولا تجارة، لكن بقي معنا ومع الأجيال من بعدنا حياً في الضمائر، ماثلاً في النفوس، حاضراً في الدروس والمنتديات العلمية، ومجامع المعرفة، وصروح الثقافة.

كلما سلكنا سبل العلم، وضربنا في فجاج الفنون، تلقانا ابن تيمية، فهو إمام في التفسير، حجة في الحديث، منظِّر في المعتقد، مجدد في الملة، مجتهد في الفقه، موسوعة في العلوم، بحر في السير والأخبار، آية في الذكاء، أستاذ في العبقرية وسامحني ـ أيها القارئ الكريم ـ إن قلت إنه أصبح أشهر من الدولة التي عاش في عهدها!. ولا نشكوا تقصيراً في حبه ـ رحمه الله ـ، لكنا نستغفر الله إن غلونا في التعلق به، كيف ننسى أياديه البيضاء وكلما قلبنا سفراً فإذا هو بين صفحاته بعلمه وحكمته وفقهه واستنباطه، وكلما حضرنا حواراً فإذا اسمه تتقاذفه الألسن، ويتقاسمه المتحاورون، كل فريق يقول: أنا أولى به؟!.. كيف لا نعيش معه وقد فرض علينا احترامه،

وأمتعنا بحضوره، وآنسنا بذكره الطيب؟ كيف لا نحب من أحب الله ورسوله ﷺ؟ كيف لا نتولى من تولى ربه؟، كيف لا نقدِّر من قدَّر الشرع؟ كيف لا نجل من أجلّ الوحي؟.

نعم عندنا ـ والحمد لله ـ من الإدراك ما يمنعنا من التقليد الأعمى والتعاطف الأرعن، والإعجاب الأحمق، عندنا تمييز بين الذكي والبليد، والصادق والكاذب، والقوي والضعيف، والصالح والطالح، فهدانا الله بفضله وكرمه إلى معرفة فضل هذا الإمام وصلاحه وذكائه ونبوغه ونصرته للحق ودفاعه عن الشريعة، ووافقنا على ذلك بشر كثير من العلماء والمؤرخين وأصحاب السير وأرباب الفنون وأصحاب التخصصات والمثقفين من المسلمين والكافرين.

دوائر المعارف تترجم عن دول بصفحتين وثلاث، ولكنها تتحدث عن ابن تيمية بعشرين صفحة!، المجامع العلمية تذكر المصطلحات في سطر، ولكنها تتكلم عن ابن تيمية في ثلاثين سطراً، ولسنا متفضلين على ابن تيمية إذا مدحناه أو ذكرنا مناقبه أو عددنا سجاياه، لكنه متفضل علينا ـ بعد الله ـ بفيض علمه، وغيث فهمه، وبركة إنتاجه، ونور آثاره.

ولن أفصل الكلام عن هذا الإمام فهو بحر لجي لكنه عذب، وهو محيط هادر لكنه فرات، وهل يستطيع المرء - ولو أجاد السباحة - أن يغوص في أعماق البحر، أو أن يهبط إلى قعر المحيط؟ كلا لا يستطيع، ولكنه يستطيع - فقط - أن يطل إطلالةً (على ساحل ابن تيمية).

غفر الله لابن تيمية، رحم الله ابن تيمية، جزى الله ابن تيمية خيراً، وشكراً لابن تيمية على ما أهدى وأسدى وأبدى. ولله الحمد أولاً وأخيراً.

وكتبه/عائض القرني

من هو ابن تيمية؟

يكفي أن تعرفه بهذا الاسم؛ فإذا قلت ابن تيمية فكفى، ولا تزد على ذلك أوصافاً، فإن أهل المعرفة وأهل العلم يعرفون من هو ابن تيمية من خلال آثاره وكتبه ورسائله وجهوده وثناء الناس عليه، وإنني أعلن ـ بالمناسبة ـ حبي لهذا الإمام العظيم؛ أحببته لصدقه وإخلاصه، أحببته لإيمانه وجهاده، أحببته لعلمه ويقينه، أحببته لعمقه ورسوخه:

أحبك لا تفسير عندي لصبوتي

أفسر ماذا؟ والهوى لا يفسرُ

وسوف لا أطيل على القارئ بالتراجم التقليدية التي تنقل من بطون الكتب، فإن فعلت ذلك فكأني ما فعلت شيئاً، ولم أزد شيئاً، ولم أضف إلى المكتبة الإسلامية شيئاً جديداً؛ إنما قصدي أن أعصر ذهني لأستخرج منه الفقه في ترجمة هذا الإمام وفي سيرة هذا العلم ـ جمعنا الله به في دار الكرامة ـ، وزادي في ذلك الحب والمعرفة التي عمرها ثلاثون سنة.

فـمنذ ثلاثين سنة وأنا أعـيش مع هـذا الإمـام، من خـلال تراثه المبـارك الذي سـرى في الأمـة حتـى قال بعضهم: ترجـمت بعض دوائر المعـارف للدولة العبـاسـية بخـمس وعـشرين صـفحـة ولابن تيمية بأربعين صفحة!، فانظر إلى دولة عاشت ما يقارب الستمائة سنة، وحكمها سبع وثلاثون خليفة، ومع ذلك لم تحظ إلا بخـمس وعـشرين صـفحة، وقـارن بهـا هـذا الفـرد العلم الذي لم يتـول أي منصـب؛ لا وزارة، ولا إمـارة، ولم يجـمع تجارة، ومع ذلك تُرجم له بأربعين صـفحة، وأقول: إننـي لا أعلم عالماً حظي بالتراجم والكتـابة والاهتمام والانشغال بمثل مـا حظي به، حتى إنه ليصدق عليه بيت المتنبي :

وتـركك فـي الدنـيـا دويـاً كـأنمـا

تداول سـمـع المرء أنمـله الـعـشـرُ

حـتـى إن بعض البـاحـثين ذكـر أنه قـد أُلف في ابن تيـمـيـة أكثـر من ثلاثة آلاف كتـاب، ما بين رسـالة وكتـاب وبـحث ورسـالة دكتوراه ومـاجستير وبحوث جامعية.

فـيـالهـذه العظمـة! ويـالفـتح الله على العـبـد إذا فـتـح سبحانه وتعالى..!

طهره في شبابه

كان ابن تيمية من الصغر في عناية الله عز وجل وفي رعايته، فلا تُعلم له صبوة، ولا تحفظ له عثرة، لم تُنقل له زلة؛ لأنه عاش في بيت إمامة وعلم وصيانة وديانة، فقد رباه أبوه المفتي الحافظ عبدالحليم، وكان أعمامه أيضاً من أهل الولاية لله عز وجل، فنشأ بين بيته الطاهر العفيف، وبيت الله العامر المبارك، وحُفِّظ كتاب الله من الصغر، وتعلم السُّنة وأخذ الآداب الإسلامية من أهل العلم، وحفظه الله ـ الحافظ ـ عن تهور الشباب، وطيش الفتوة، ونزق الصبا، فعاش عفيفاً ديّناً مقتصداً صيّناً رزيناً عاقلاً محافظاً على الفرائض، معتنياً بالسنن، كثير الأذكار والأوراد، بعيداً عن اللهو وعن البذخ والسرف واللعب وكل ما يشين الرجال، وكل ما يخدش المروءة، وكل ما يُذهب الوقار؛ فصار محل العناية من الأكابر، حتى كان يُعرف إذا مر فيقال هذا ابن تيمية؛ لاشتهاره بين أقرانه بالجد والمثابرة وحب العلم والبراعة في التحصيل، وسرعة الحفظ والذكاء، والألمعية وجودة الخاطر وسيلان الذهن وقوة المعرفة ـ رحمه الله ـ.

جده في التحصيل

نقل المؤرخون وأهل السير أن ابن تيمية كان منشغلاً في كل أوقاته بتحصيل العلم ما بين قراءة وتكرارٍ وحفظٍ ومذاكرة واستنباط وكتابةٍ وتأليف وتعليق، فلا تراه إلا منكباً على كتاب، أو جالساً بين يدي شيخ، أو مذاكراً للطلاب، أو مطارحاً لأقرانه وزملائه، فكل أوقاته انشغال من أولها إلى آخرها، إلا ما كان فيه وقت مباح كنومٍ أو طعامٍ أو نحو ذلك، حتى إنه لم يتزوج ـ رحمه الله ـ لانشغاله بالعلم والجهاد ونشر الخير في الناس، ولم يتول أي ولاية ولا مشيخة ولا دار حديث ولا منصب دنيوي، ولم يتشاغل بالمال، ولم يذهب في تجارة، ولا في زراعة، ولا في أي مهنة من المهن، بل كان ـ رحمه الله ـ منكباً على العلم، ثم إنه لم ينهل من علم واحد ولا من تخصص فحسب، ولا من فنٍ فقط، بل تبحّر في جميع الفنون فبرع فيها ورد على أصحابها، ورسخ في الجميع فصار آية وأصبح أعجوبةً. فبتحصيله يُضرب المثل بين طلبة العلم، وسيرته تعتبر نبراساً لمن أراد أن يحصّل المعرفة ويبحث عن العلم، ويصعد في سلم الهمة العالية، فهو بلا شك قدوة في هذا الباب، وأسوة حسنة لرواد المعرفة، وشداة الحق، والباحثين عن الحقيقة، والطالبين للعلم النافع .

حفظه

أما حفظه فحدث ولا حرج؛ فقد صار ابن تيمية مضرب المثل عند أصدقائه وأعدائه، واعترف الكل له بأنه أحفظ من رأوا، وعدُّوه من الأئمة الكبار في الحفظ، وليس حفظاً فقط بل حفظاً بفهم، فكان يسابق حفْظُه نظرَه، وكان يُعطى الكتاب في صغره فيقرؤه مرة فينتقش في ذهنه، وذكر عن نفسه أنه يقرأ المجلد ـ بحمد الله ـ فيرسخ في ذهنه، وبذلك حفظ كتاب الله عز وجل، وحفظ السُّنة المطهرة، وحفظ أقوال أهل العلم، وحفظ الآثار، وحفظ التفاسير، وحفظ شواهد اللغة، فكان إذا تكلم أغلق عينيه فسالت قريحته بنهر يتدفق من العلم النافع المبارك حتى قال فيه بعض الشعراء:

وقّادُ ذهنٍ إذا سالت قريحته

يكاد يُخشى عليه من تلهُّبه!

وقد نفع الله بهذا الحفظ؛ فقد تركت ذاكرته القوية المباركة للأمة ميراثاً مباركاً من الكتب النافعة، وكان يُملي أحياناً بعض المجلدات من حفظه في السفر وفي الحبس حيث لا توجد

مكتبته لديه فيأتي بالعجب العُجاب، وينقل بعض كلام الأئمة بنصه وفصه ثم يعلق عليه، وربما استدرك، وينقل الأحاديث من حفظه وينسبها لأصحابها، أما القرآن فقد سال على طرف لسانه يأخذ ما شاء ويترك ما شاء، فقد حفظه من الصغر حتى أصبح كتاب الله عز وجل عنده كسورة الفاتحة، مع فهمٍ ثاقب لما يحفظ، فليس ناقلاً فحسب كما هو شأن كثيرٍ من الناس يحفظ المعلومة ثم لا يتصرف فيها، بل كان يحفظها ويعيها وينزّلها ويقدرها حق قدرها، ويوظفها في المكان المناسب، ويُخرج منها ما شاء الله من الكنوز والعبر والعجائب، فيأتي بما يشدّه الألباب ويذهل العقول من الفوائد والدرر والنكات العلمية.

ألمعيته

من تلظي لموعه كاد يعمى

كاد من شهرة اسمه لا يُسمَّى!

الألمعية هبة يهبها الله من يشاء، وابن تيمية له القدح المعلى في هذا الباب، فإذا كانت الألمعية هي سرعة الخاطر، وجودة الذهن، فإن ابن تيمية الأول في هذا الباب عند أهل العلم؛ فقد كان يفهم المسألة بقوةٍ وجدارة، وكان يعي ما يقرأ، وكان ينتزع الفائدة ويستنبط من النص استنباطاً عجيباً، وكان إذا حاور يفهم كلام محاوره ويرد عليه في سرعة البرق، وكان إذا كتب يسبق خاطره قلمَه ـ كما يقول عنه مترجموه ـ، ومن ألمعيته أنه كان يدرك الشبهة في أسرع وقت، ويرد عليها ويزيّف الزائف من الكلام، ويثبت الحق، ويميز بين المتشابهات، ويفرق بين المختلفات، وكان يوهم بعض الأئمة في بعض الأبواب من تخصصاتهم، فأحياناً ينقد بعض المحدثين والمؤرخين، وبعض الفلاسفة وأهل المنطق، وعلماء الكلام، ويرد عليهم في تخصصاتهم فإذا هو أفهم منهم بفنهم وبتخصصهم،

ومن ألمعيته ـ رحمه الله ـ أنه إذا دخل في علم قلت لا يُجيد إلا هذا العلم، ولا يحسن إلا هذا الباب، فيأتي بالعجب العُجاب، ويُسهَّل له هذا المسلك الذي سلكه فيكون فرداً في بابه، ويكون وحيد عصره فيما نهجه وفيما اتخذه؛ فألمعيته ـ رحمه الله ـ محل الشهود ومحل الاعتبار من الجميع حتى صار فرداً ووحيداً في هذا الباب.

سعة علمه

من العلماء من برع لكن في فن واحد، فمنهم المحدث الجهبذ في حديثه، ومنهم العلامة في فقهه، ومنهم الفرد في تاريخه، ومنهم الأوحد في أدبه، ولكن ابن تيمية كان بحراً لا تكدره الدلاء، فهو المنظِّر لأهل السُّنَّة في باب المعتقد، وهو المحدث الناقل البصير الجهبذ في علم الحديث روايةً ودرايةً، وفي علم الرجال، حتى شهد له المزي - وكفى به شاهداً - في هذا الباب، وشهد له الذهبي أيضاً، وهو فرد زمانه في هذا التخصص، فكان يجرح ويعدل ويميز بين الروايات، ويعرف هذا الفن معرفة تامةً دقيقة، وقد استولى على جميع أبوابه وعلى جميع فصوله وفنونه، وهو في استنباط النص آية من آيات الله عز وجل، فكان يورد الآية والحديث ثم يورد كلام أهل العلم ممن سبقه، ثم يأتي بكلام زائد على كلامهم، وربما انتقد كلامهم أو وافقه أو عارضه أو سكت، وكان أعجوبة في التفسير، يقرأ - كما ذكر عن نفسه - أكثر من مائة تفسير في الآية، ثم يدعو الله ويتضرع إليه ويسأله فيفتح عليه سبحانه وتعالى علماً في الآية لم يكن مكتوباً من ذي قبل، وربما أملى

في الآية الواحدة كراريس، ونقلوا عنه أنه بقي سنوات طويلة في شرح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، وكان يأتي بالآية الواحدة ربما يذكرها بعد صلاة العصر في مجلسه فيغلق عينيه، ثم يذكر الأقوال والترجيحات والاختلافات والنقولات وما قيل فيها، معترضاً وموجهاً ومصححاً ومقرراً حتى صلاة المغرب، كما قرأ الفلسفة ورد على الفلاسفة وزيّف كثيراً من أقوالهم وردها إلى الوحي، ورد على المناطقة وتغلب عليهم بالحجة وعلا عليهم بالبرهان، ورد على علماء الطوائف من رافضةٍ ومعتزلةٍ وجهميةٍ وأشاعرةٍ وصوفيةٍ ودهريةٍ ويهودٍ ونصارى، كل ذلك وهو معتصم بالدليل، سائر مع النص، متحاكم إلى الوحي.

همتــه

همـــــة تنطح الثــريا وعــزمٌ
نـبـــويٌ يـزعــزع الأجـــبـالا

لا أعلم عـالماً بعد أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام بلغت به همته مثل ما بلغت همة ابن تيمية به، فقد أتعبته ولكنها أوصلته إلى مراقي الحمد، ومصاف الكرامة، وغاية المجد، وذروة الشرف، وسنام القبول في الأرض، همته حرّكته إلى طلب العلم النافع فلم يرض بعلم دون علم، ولم يقنع بتخصص دون تخصص، ولم يشبع من فنٍ دون فن، بل رسخ في الجميع، ومهر في الكل، واستحوذ على قصب السبقِ في المعرفة، تتجلى همته في العبادة، فقد كان خاشعاً منيباً مخبتاً متسنناً، كثير الأوراد صلاةً وصياماً وذكراً ودعاءً وقيام ليلٍ وجهاداً وإخلاصاً وإنابةً وتواضعاً وخشيةً لله عز وجل وغيرةً، وفي التأليف، فهو من العلماء الثلاثة الذين بلغوا الغاية في التأليف، وهم ابن الجوزي والسيوطي بالإضافة إليه، وقد كان أكثرهم تحقيقاً وتنقيحاً ورسوخاً وعمقاً ونفعاً وأثراً في الأمة،

حتى قيل إن مؤلفاته بلغت بالرسائل والكتب أكثر من ألف مؤلف، ولو جُمعت لكانت أكثر من خمسمائة مجلد، وقد ضاع منها الكثير. كما تتجلى همته في الدعوة؛ فقد اشتغل بالدعوة الفردية، والدعوة الجماعية، ودعوة السلطان وحاشيته، ودعوة العامة، ودعوة الطوائف جميعاً، ودعوة غير المسلمين، فدعا بالكتابة والخطابة والدرس والمراسلة، ودعا وهو في الحبس، ودعا في المعركة، ودعا بالآيات البينات، ودعا بالحُجج القواطع، ودعا بالبراهين الساطعة، والأدلة اللامعة، ودعا بالمناظرة وبالمحاورة، ودعا مشافهةً، ودعا كتابةً؛ فكانت حياته ـ رحمه الله ـ دعوة من أولها إلى آخرها.

غيرتـه

الغيرة وقود ملتهب يمنحه الله من يشاء، فيأنف من الخسة، ويرتفع عن الدناءة، ويعشق الكمال، ويتلهف على الفضيلة، ويحب معالي الأمور، وهكذا كان ابن تيمية، يغار على محارم الله، ويغضب كل الغضب إذا انتهكت حدود الله عز وجل.

كان يفادي بروحه الملة وصاحبها ﷺ، وقد جُلد من أجل حماية جناب المصطفى ﷺ؛ فقد اعتدى بعض النصارى على الجناب الشريف بكلام فدافع ابن تيمية، فشكاه ذلك المعتدي إلى السلطان، وهيج العامة على ضربه، فجلد شيخ الإسلام في مجلس السلطان بسبب هذا، وهذا في سبيل الله عسى الله أن يأجره كل الأجر على هذا الموقف العظيم، وألف في ذلك (الصارم المسلول على شاتم الرسول) ﷺ.

كان إذا رأى المخالفة الشرعية غيَّرها بما عنده من فقه، فكان لا يرى منكراً إلا قام كل القيام حتى يُغيِّر هذا المنكر، ويدخل السوق فيغير المنكر وينبه على الباعة وأهل المكاييل

والموازين، وينهى الصوفية عن ابتداعاتهم، ويُغيرُ على المخالفين من الكهنة والسحرة والمشعوذين، وينهى عن مخالفة السُّنة ظاهراً وباطناً، ويدعو الناس إلى منهجه عليه الصلاة والسلام، ويقول: لا يسع أحد في العالم الخروج على سنتهﷺ، وكان يغار في مجلس السلطان فيقول الحق غير هيّابٍ ولا جبانٍ ولا خائف، بل يصدع بالحق بقلب جريء أشجع من قلب الأسد، في إقدام وإصرارٍ، حتى ذهُل منه السلطان، وتعجب منه الملوك، وخافه أرباب الدول، واحترمه العامة والخاصة، لما علموا من صدقه وجرأته وثباته ـ رحمه الله ـ.

سلامة مشربه

ابن تيمية صاحب المنهج الوسط العدل الصحيح الصافي، فقد أخذ مشربه من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فلا تُعرف له بدعة، ولم تحفظ عليه مخالفة للكتاب والسنة، بل كان دائماً مع الدليل، مع الآية والحديث، متبعاً مَنْ سلف من أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين، لا يخالفهم، وإنما يشد من أزرهم ويقوي منهجهم، ويدعو إلى مذهبهم وإلى منهجهم ـ رضوان الله عليهم ـ، موقراً رسول الله ﷺ، معظماً ربه كل التعظيم، محترماً أئمة الإسلام، ولا يقول بعصمة غير الرسول عليه الصلاة والسلام، فكان ـ رحمه الله ـ الإمام المعتبر في سلامة المنهج، وصحة المعتقد، وصفاء المذهب، حتى سارت على منهجه مدارس وجامعات وجماعات وطوائف، واستحسن أهل البصيرة ما سلكه ـ رحمه الله ـ في كتبه وفي رسائله وفي منهجه الإصلاحي، فجزاه الله عنا خير الجزاء .

زهـــده

يقـول هو عن الزهـد: الزهد ترك مـا لا ينفع فـي الآخـرة، وحقق هو هذا القول في حيـاته؛ فقد أعـرض إعراضـاً كلياً عن الدنيـا واطـرحهـا وزهد فيـهـا، وعـاش للآخـرة، فلم يتـولَّ ولاية، ولم يتقلد منصبـاً، ولم يجمـع مـالاً، ولم يأخذ أعطيـة، ولم يضـع درهمـاً على درهم أو ديناراً على دينـار، ولم يبنِ بيتـاً، ولم يتـخـذ سكنـاً، ولم يأخـذ مـزرعـةً، ولـم يذهب فـي تجـارة، ولـم يعـمـر عمـارة، ولم يتكثر من الملابس، ولم يتـأكَّل بالعلم، ولم يذهب في حاجته الخـاصة الدنيوية، بل كـان جُل همه العلم النافـع والعمل الصالح، فما عُرف في وقته أزهد منه، وكان يرضى بالقليل من الطعـام، وكـان لا يسـرف في الأكل بل يكتـفي بلقـيمـات، وكـان يلومـه أصـحـابه عـلى قلة أكله، ومع ذلـك لا يغـيـر من عـادته، متقشفاً في ملبسه، ومـا كانت تُعرف له إلا غرفة واحدة بجانب المسـجـد، مع قلة الملابس وقلة ذات اليـد، ومـا كـان يميـز بين الدراهم ولا بين الدنانيـر، وكان ما يأتيه من المال دون طلب منه يصرفه في الحال على الفقراء وعلى المساكين، ولم يُمسِ عنده فـيمـا يُعلم درهم ولا دينـار، فـأقـر له الموافق والمخـالف والمحب

والمبغض بأنه آية عجيبة في الزهد والانقطاع إلى الله، وإهانة الدنيا وعدم الالتفات إلى أصحابها، وعدم توقير خدامها، وإنما توقيره لأهل العلم وللعبَّاد والزُّهاد، وللصالحين عموماً.

تقشفه

مر شيءٌ من هذا في الزهد، ولكن عُلم أنه من شبابه لم يكن صاحب رعونة، حيث يشغله ملبسه ومطعمه، أو تلهيه هموم بطنه وشهواته عن معالي الأمور، بل كان - رحمه الله - يجتزئ باليسير من اللباس واليسير من الطعام؛ فكان يلبس الثوب الواحد والعمامة على ما تيسر من ملابس، شأنه شأن أفراد الناس مع نظافة وطهارة، وكان ينام على ما تيسر من فراش، فلم يتخذ الفرش الوثيرة ولا اللحاف الكثير، ولم يعدد في اللباس، ولم يكثّر من الأطعمة، فكان ربما اكتفى بالصنف الواحد من الطعام، مقبلاً على شأنه، مهتماً بعلمه، مستغرقاً أوقاته في عبادة ربه، ما بين تلاوة وقراءة ومطالعة وذكرٍ وتأمل وجهادٍ ودعوةٍ وأمر بمعروفٍ أو نهي عن منكر أو إصلاح بين الناس .

سنيّته

اتباع السنة منحة ربانية وعملٌ صالحٌ مبرور من أعظم أعمال العبد، ولا يحصل ذلك إلا بتوفيق من الله، وفرق بين أن يقرأ العبد السُّنّة ويطالعها ويحفظها وبين أن يضيف إلى ذلك التسنن بها وظهورها على حركاته وسكناته، وكذلك كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، فقد ظهرت سنة رسول الله ﷺ عليه قولاً وعملاً، في عباداته، في معاملاته، في كلامه، في أخذه وعطائه، في سلمه وحربه، في رضاه وغضبه، في تأليفه وفي رسائله، في خطبه ودروسه ومواعظه وحواره وجدله، فكان من نظر إليه ذكر الله عز وجل وتذكر سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان معظّما للرسولﷺ، موقراً له، خاشعاً بين يدي سنته، مستسلماً لحكمه، معظّماً لحديثه، مُتَّبعاً لآثاره، مقتديًا بكل ما صح عنه عليه الصلاة والسلام، فظهرت بركته على أصحابه وطلابه وتلاميذه، حتى قالوا ما رأينا أكثر عملاً بالسنة من ابن تيمية، ولا رأينا أكثر من ظهرت عليه بركات السنة من ابن تيمية، ولا رأينا من لاحت عليه معالم السنة في كل حركة من حركاته من شيخ الإسلام، حتى إن من رآه تذكر

رسول الهدى ﷺ، يذكرك به في لباسه، في عمامته، في قميصه، في نومه، في يقظته، في أكله وشربه، في ذهابه وإيابه، في مخالطته للناس وفي عزلته، مستمسكاً بالسنة حرفاً حرفاً وجملة جملة وأثراً أثراً، فغفر الله له.

سلفيته

ابن تيمية هو إمام السلفية في عهده والعهود التي لحقته، فكان على منهج السلف اعتقاداً وتعبداً وعملاً وجهاداً، فهو السلفي بمعنى الكلمة، فلا يُعرف في عهده ولا بعده من احتذى حذو السلف أو اقتدى بالسلف حذو القذة بالقذة كابن تيمية، فإنه قرر مذهبهم في المعتقد: في الأسماء والصفات، في توحيد الربوبية والألوهية، في اليوم الآخر، في القضاء والقدر، في الوعد والوعيد، في حب أهل البيت، في حب الصحابة، وفي كل مسألة كبيرة أو صغيرة من المسائل كان على منهج السلف، ولم تُعرف له مخالفة ـ رحمه الله ـ، وليس معصوماً لكنه رجَّاع إلى الحق، وكان مقصده أن يقرر مذهب السلف، وهو الذي نظّره وأظهره للناس، وألف فيه وشرحه وبسطه وأوضحه وأزال الشبه عنه، ونفض الغبار الذي تراكم عليه في القرون التي تلت التابعين، ورد على خصوم هذا المنهج، ودحض أقاويلهم، وفنّد شبههم، واعترض عليهم وأرغمهم وألزمهم الحجة، ودمغهم بالدليل، وداسهم بالبرهان، فأظهر هذا المنهج أيما إظهار، ونصره أيما نصر، وخدمه أيما خدمة، فصار

معلوماً للخاص والعام، وعلّمه في دروسه وفي خطبه، ودعا إليه سراً وجهراً، حتى في مجالس الملوك، وفي ديوان السلطان، وفي بلاط الوزراء والأمراء، وفي مجامع القضاة، فكان ينتصر لهذا المذهب ويغضب له، ويرى أنه الحق وأنه الأسلم والأعلم والأحكم، وكل رسائله ومؤلفاته وكتبه تشهد بذلك، فلو قلت: إن الناصر ـ حقيقة ـ لمذهب السلف من عصر ابن تيمية إلى الآن هو ابن تيمية لما ابتعدت عن الصواب، وكل من أتى بعده في الغالب من متبع السلف استفاد منه، ونهج نهجه، وانتفع بكتبه، وسار على منواله، فمن مقلٍ ومستكثر، فرحم الله هذا الإمام، ما أحسن تقريره لمذهب السلف، وما أوضح شرحه، وما أبسط عبارته، وما أحسن مقاله، وما أجمل تأليفه في هذا الباب، حتى إنا نقر ـ والحمد لله ـ بأننا استفدنا كل الفائدة من هذا الإمام في معرفة منهج السلف في المعتقد، وفي العبادات، وفي السنن، وفي كل شأن من شؤون الدين؛ فجزاه الله عنا خير الجزاء.

ابن تيمية مع الدليل

من تميز ابن تيمية أنه صاحب دليل وبرهان، فلا يقول قولاً له دليلٌ في الكتاب ولا في السنة إلا أورده، وهمه أن يعتصم في كل مسألة بآية أو بحديث ثابت، فليس صاحب هوى وليس مقلداً متعصباً، بل يطلب الحق أينما وجد، ويريد الحجة، ويفرح بالبرهان، ويتبع الدليل، يسير معه حيثما سار، سواء كان في أصول المسائل أو في فروعها، فتراه إذا كان الدليل مع أي مذهب من المذاهب ـ سواء كان حنفياً أو مالكياً أو شافعياً أو حنبلياً ـ ذهب معه وأعرض عما سواه، وهو يوصي طالب العلم أن يعتصم في كل مسألة بدليل ثابت، ثم لا يلتفت إلى قول أحدٍ من الناس كائناً من كان، ويرى أن على طالب العلم أن يدور مع الدليل حيثما دار، ولا يكون مقلداً، فإن العلماء ليسوا أنبياء معصومين، وهذا الذي ميز شيخ الإسلام؛ حيث جعل لكلامه من الخلود والقبول والرسوخ والأصالة والعمق ما ليس لغيره، فليس ضعيفاً في إيراد الكلام، بل تجد عليه أنوار النبوة تلوح، وعليه براهين الحق تسطع.

ابن تيمية مربياً

أثَّرت الشريعة على ابن تيمية في حياته وفي أخلاقه وفي سلوكه؛ فتجده متلذذاً بالعلم سائراً معه، قد ظهرت بركة الملة عليه في كلامه وفي حواره وفي مناقشاته وفي ردوده، وتجده في غضون كلامه ينصح ويوجه ويرشد ويدعو ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فقلما يورد قضية إلا وجَّه إلى الحق فيها، وبيَّن الصواب بقلم سيال وبلفظ جذاب، وهو مدرسة في التربية وفي التوجيه، ليس ناقلاً فحسب وليس مكتفياً بعرض رأيه فقط، بل يعرض رأيه ويدعو البقية إلى طلب الحق، فهو بهذا يربي الجيل ويوجههم إلى ما فيه خيرهم.

ابن تيمية مفسراً

في سيرة ابن تيمية أنه قد حوى التفسير وطالع كتبه جميعها، سواءً المأثورة منها أو العقلية التي تعتمد على الرأي، ثم فهم الجميع، وحصرها وعصرها، ثم أخرج لنا درراً في غضون كلامه، وقد نُقل أن له تفسيراً خاصاً به، لكن الذي طالعناه من كلامه في التفسير عجبٌ من العجاب، فأحياناً يورد الآية ثم يسهب في مقاصدها ومعانيها ومراميها، وأحياناً يُغلِّط كثيراً من المفسرين ويرى أنهم وهموا وأخطؤوا في ما ذهبوا إليه، كل ذلك بأصالة لا تعرف الضعف، وبكلام رجل عرف اللغة وعرف مدلول الكلام، وعرف النقل صحيحه وسقيمه، وعرف آراء المفسرين وأقوالهم في المسألة، فصار بحق من أعظم المفسرين الذين مروا في تاريخ الإسلام، وأشاد كل من ترجم عنه بهذه الميزة فيه، بل عدوا من أعظم ما تميز به ميزة التفسير.

ابن تيمية محدثاً

علم الحديث علمٌ شريف جليل، والمحدثون هم بمنزلة أصحاب الرسولﷺ، وهم خيار الأمة وصفوة الأجيال، وقد أشاد بهم ابن تيمية ومدحهم بشتى المدائح، ونوه بذكرهم وقال إن لهم نصيبًا من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وأنزلهم منزلة الصحابة في الفضل، وأنزل أهل المنطق والفلسفة منزلة المنافقين، والرجل صاحب حديث فأحياناً يتكلم عن السند والعلل الخفية، وأحياناً يتكلم عن الاعتبار وعن الشاهد وعن المتابعة، كما يضعّف الضعيف، ويوهن الواهي، ويبين الموضوع، ويتكلم عن المعنى بكلام لا أحسن منه، وينسب الحديث إلى من خرّجه، ويبين لك مصادر كل رواية، ويبين الزيادة، ويعرف الشاذ، ويدرك المنكر، ومن طالع كتبه بتمعن وجد أنه محدث من أكبر المحدثين، بل شهد له معاصروه بذلك كالمزي والذهبي والبرزالي، وغيرهم من أهل الحديث.

ابن تيمية فقيهاً

الفقه هو إدراك معنى النص والغوص في دلالة النقل، وهكذا كان ابن تيمية، فليس فقهه فقه من ينقل الأقوال أو يتبع كلام الأئمة ويحفظه وينقله لنا، لكنه أدرك أقوال الأئمة جميعها، وأقوال الموافقين والمخالفين وأهل المذاهب والروايات المختلفة لكل عالم، ثم جعل النص نصب عينيه واستنبط منه، ثم ذكر من وافقه ومن خالفه، والعجيب فيه سرعة بديهته، وجودة استنباطه، وحسن انتزاعه المعنى من الدليل، فهو الفقيه بحق في فتاويه، وفي تقريراته، وفي مراسلاته، وفي عرضه للمسائل، حتى إن كلامه لا يختلف من كتاب إلى كتاب، أو رسالة إلى رسالة، بل تجد الرسوخ، وتجد الاتفاق، وتجد المعنى، فأحياناً يبسط المسألة، وأحياناً يختصرها، لكن المقصود أن كلامه واحد لا يتغير .

ابن تيمية مناظراً

نقل عنه أهل السير أنه كان يحضر مجالس المناظرة، وتُعقد له مناظرة مع خصومه ومخالفيه فيأتي بما يبهر الألباب، ويعلو عليهم وينتصر بالحجة الدامغة، والبيان الخلاّب، والذاكرة الواعية، والبديهة اللماحة، حتى إنه ناظر كثيراً من الطوائف في حضور السلطان وعلى مرأى من الخاصة والعامة، فكان الحق معه وكان الله يؤيده؛ لأنه يريد الحق وحده، وقد ذكر كثير من أهل التاريخ أن علماء الطوائف اجتمعوا له وهم في صف وهو وحده في صف، قال بعض المؤلفين واصفاً الموقف: ولكنها بحيرات صغيرة صادفت ـ والله ـ بحراً ثجاجاً، وذرات صادفت جبلاً راسخاً[1]، وكان لا يكل ولا يمل من المناظرة، بل كان يستدرج من يناظره ويحاوره حتى يوقعه ويصرعه، كل ذلك ومقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون الحق هو المنتصر في الأخير، فليس قصده المغالبة لذاتها، ولا قصده الظهور والشهرة، ولا قصده أن تكون له منزلة ولا مكانة، فقد ترك المنازل الدنيوية لأهلها، وأبى المناصب وعاف الولايات، وأعرض عن المال ـ كما أسلفنا ـ، فالمقصود أنه ما كان يحجم ولا يجبن وقت المناظرة، بل كان جريئاً ذا قلب شجاع، ثابتًا كالأسد في حومة الوغى.

ابن تيمية مجاهداً

عُرف ابن تيمية بالجهاد العلمي والعملي، فجاهد جهاد الكلمة، عبر الدرس والخطبة والمحاضرة والوعظ والنصائح والكلمة، عبر الرسالة والمؤلف والفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد بالنصائح عند السلاطين، وعند الظلمة، وعند المخالفين من الطوائف، والجهاد بالسيف، فقد حضر غزوة (شقحب)، ودعا الناس للجهاد، وأمرهم بالفطر في رمضان، وثبت ثبات الجبال، وأبلى بلاءً حسناً، ودخل على السلاطين بقلب جريء ثابت، حتى تعجب منه الناس وذهل منه أصحابه، وقالوا: ما رأينا أشجع منه، لا كلَّ ولا ملَّ ولا جبن، فغفر الله له .

ابن تيمية عابداً

لا خير في العلم إذا لم يورث عالماً عابداً صالحاً مصلحاً، ولا أثر لمعرفة الإنسان إذا لم ترشح على تصرفاته أخلاقاً وسلوكاً، كان ابن تيمية في جانب العبادة من الصالحين الكبار، عمل بعلمه - رحمه الله - في عباداته الخاصة، فكانت صلاته طويلةً طويلة، مخبتاً في ركوعه وسجوده، كثير الذكر حتى إنه لا يفتر لسانه، وربما استغفر ألف مرة أو أكثر، وكان يردد دائماً لا حول ولا قوة إلا بالله، وكان كثير الابتهال والتضرع، كثير الدعاء والبكاء، كثير المسألة والإنابة، كثير التوبة، وكان يرى أن زاده هو الذكر، وأن قوته هو التسبيح، وكان يجلس بعد صلاة الفجر إلى أن يتعالى النهار وهو يردد الفاتحة، ويمضي الليل الطويل ما بين الركوع والسجود والقنوت والبكاء والتضرع، وكانت تلوح عليه أنوار الطاعة، وإذا خرج إلى الأسواق ورآه الناس كبروا وهللوا، ومن رآه ذكر الله عز وجل ورأى فيه القدوة المثلى والأسوة الحسنة، وكان إذا قرأ القرآن قرأه بصوت خاشع مُبكٍ حزين، وكان له تأملات في كتاب الله عز وجل، وله تدبر، وكان كثير الصدقات، كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كثير الإصلاح بين الناس، كثير التواضع، جم الأخلاق، عفيفاً منيباً صادقاً.

كلامه عن اليهود

فقد كشف ابن تيمية زيفهم وبين مخازيهم في كثير من كتبه وفي غضون كلامه، شارحاً للآيات التي وردت بصددهم، عارفاً ـ رحمه الله ـ ضررهم على الأمة وما فعلوه مع رسول الله ﷺ، ملماً بكتبهم وكلامهم وفرقهم وطوائفهم، كل ذلك وقصده محاربتهم وحماية الدين منهم.

كلامه مع النصارى

عايش ابن تيمية النصارى في الشام وعرف طوائفهم وفرقهم معرفة تامة، وألف كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) يبين فيه زيفهم وخطورتهم على الإسلام وما خالفوا فيه شرع الله عز وجل وما ضلوا فيه، فإن النصارى عملوا بلا علم، واليهود عندهم علم بلا عمل، فبين ـ رحمه الله ـ ما على النصارى من مؤاخذات تقدح في أصول الشرائع وتخالف ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وما نزلت به الكتب، كل ذلك بالإنصاف والحجة والبرهان والعدل، ليس بالتشهي ولا بالهوى.

كلامه مع الملاحدة

الإلحاد جريمة كبرى في الدنيا ولعنة ساحقة ماحقة في العالم، وهو قديم قدم الظلالة في الأرض؛ ولذلك كان ابن تيمية - رحمه الله - يتصدى لهذا النَفَس، سواء من أهل النظم أو أهل النثر، ممن انتسب للإسلام أو من المنتسبين لغيره من الفلاسفة وأهل المنطق ومن سار على منهجهم، فيبين انحرافهم المشين، وغوايتهم الظاهرة، وسبب كل غواية، بل يأتي إلى الملحد فيبين أصل إلحاده، ومنشأ هذا الإلحاد، وسببه وأقوال ذاك الملحد ونقولاته، سواء كان من الصوفية الاتحادية أو الحلولية، وسواء كان من أهل الفلسفة أو من أهل المنطق، أو من أهل الهوى والزيف، وقد يجمع له رسالة في ذلك، أو كتاباً مستقلاً في غضون كلامه في مؤلفاته .

كلامه مع الرافضة

من أحسن كتب شيخ الإسلام على الإطلاق (منهاج السنة)، ولو ذهب ذاهب من مكة إلى الصين حافياً ماشياً لطلب هذا الكتاب لكان سفره قليلاً!؛ فإن الرجل بحق أتى بكتاب لم يُسمع بمثله، وجادت قريحته بهذا المؤلَّف المبارك الخالد، فبيَّن كل البيان بالأدلة الشرعية القاطعة، وبالحجج العقلية، وبالتنزل، وبالحوار الصادق، وبالكلمة الجريئة الناصعة مخالفة الرافضة لأهل السنة، واعتداءهم على أصحاب الرسول ﷺ، وسبهم للشيخين، وكذبهم وافتراءهم، وعدم معرفتهم بالنقل، وعدم صدقهم، وعدم وضوحهم في المنهج، والعجب في هذا الكتاب أنه يستدرج خصمه ويستنزله، ثم يحفر له قليباً ـ كما يقول بعض أهل العلم ـ، ثم يضعه فيه، ثم يطم عليه ويتركه مكانه!. ومنهاج السنة ظهرت فيه أمور، منها: الانتصار لأهل البيت، ولأصحاب رسول الله ﷺ، ومنها بيان الكذب والزيف الذي دخل على الأمة من طريق الرافضة، ومنها أن الحق ما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ في أهل البيت، وفي أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي المعتقد، وهو الذي عليه أهل السنة وأتباع السلف الصالح.

كلامه عن الخوارج

الخوارج قوم مارقون منتسبون إلى الإسلام، أخبر ﷺ بأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وصيامكم إلى صيامهم، وتلاوتكم إلى تلاوتهم، ولهم أتباع ويرون الخروج على أئمة الجور، ويرون سلّ السيف على الأمة، ويكفّرون بالكبيرة، وقد تتبعهم ابن تيمية في كتبه وبيّن مخالفتهم وأصل نشأة فكرتهم الضالة، وبيّن أسباب شططهم وجورهم، ودمَغَهم بالدليل، وبيّن الحق الذي ينبغي في هذه المسائل بياناً شافياً كافياً لا عوج فيه، فأثبت أن أهل السنة ليسوا خوارج بل هم متبعون للدليل لا يخرجون على أئمة الجور ولو ظلموا ما لم يروا كفراً بواحاً، ولا يكفّرون صاحب الكبيرة ما لم يستحلها، بل هو مؤمن ناقص الإيمان أو فاسق، ويأخذون بالكتاب والسنة، ولهم منهج آخر مغاير للخوارج الضلال .

ابن تيمية وكلامه عن المرجئة

والمرجئة قومٌ يقابلون الخوارج؛ فهم يرون أن أصل الإيمان واحد، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، وأن صاحب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، وهذا كله خطأ مخالف للكتاب والسنة، وقد بين ابن تيمية خطورة هذا المسلك، وردَّ عليه في كتبه، وشرح وبسط، وبيَّن أن أهل السنة ليسوا مرجئة، وأن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه متفاوت والناس متباينون فيه على درجات، وأن إيماننا ليس كإيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن صاحب الكبيرة فاسق بكبيرته ناقص الإيمان، وأن الذنب يضر في الإيمان، وكل ذلك مخالف لما سارت عليه هذه الفرقة .

ابن تيمية والجهمية المعطلة

نشأت ناشئة من معطلة النصوص عطلوا أسماء الله سبحانه وتعالى الحسنى وصفاته العلا، ألحدوا في دين الله عز وجل، وقالوا بخلق القرآن، وقد صار لهذه الفرقة شأن وصولة وجولة في عصر المأمون، وتصدى لهم الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسألة القول بخلق القرآن، وأتى ابن تيمية بعده بقرون فبين أصل هذه الشبهة، ورد على الجهمية رداً مفصلاً في كثير من كتبه ودحض زيفهم، وبين أن أهل السنة ليسوا جهمية معطلة، وأنهم يثبتون الأسماء والصفات كما أتت في الكتاب والسنة، بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل، وأن القرآن كلام الله عز وجل ليس بخلق من خلقه، وإنما هو من أمره تبارك رب العالمين.

ابن تيمية وكلامه عن المعتزلة

والمعتزلة قوم قدموا العقل على النقل، وقدموا الرأي على الدليل، وأثبتوا الأسماء ونفوا الصفات، فتتبعهم ابن تيمية ورد على أئمتهم ردوداً مفصلة، وأورد من الأدلة القاطعة والجامعة المانعة مايؤيد مذهب أهل السنة في الباب، وأن أهل السنة ليسوا معتزلة، وأن النقل مقدم على العقل، وبيَّن أن العقل أصلاً لا يتعارض مع النقل، وأتى بكتابه الشهير الخطير الذي يقول عنه ابن القيم ما طرق العالم مثل هذا الكتاب وهو (درء تعارض العقل والنقل) في عشر مجلدات كبار، بيَّن فيه هذه الشبه وزيّفها، ودَحَضَها وأقام الحجة وأوضح المحجة لأهل السنة بجواب شافٍ كافٍ.

ابن تيمية والأشاعرة

الأشاعرة أقرب الناس لأهل السنة، ومن أئمتهم أناس نفع الله بهم ودافع بهم عن الملة، بل ردوا على المعتزلة وردوا على الجهمية المعطلة، ولكنهم خالفوا أهل السنة في كثير من المسائل، بيّنها الشيخ ابن تيمية في كتبه وأوضح الحق في ذلك؛ كمخالفتهم في إثبات سبع صفات ونفي الباقي من الصفات، وبيَّن أن القول في بعض الصفات كالقول في البقية، وأن من أثبت صفاته لله عز وجل يلزمه أن يثبت بقية الصفات، وأن القول في الصفات كالقول في الذات، وقد ذكر هذه القواعد في رسالته المباركة (التدمرية)، فليس أهل السنة أشاعرة بل يثبتون الأسماء والصفات على ما جاء به كتاب الله عز وجل وسنة الرسولﷺ، ويتقيدون في ذلك بالدليل، وهم على ما قال أصحاب رسول اللهﷺ، وما قاله تابعوهم بإحسان، فليعلم ذلك.

ابن تيمية وكلامه عن الصوفية

كتب ابن تيمية كتاب (الاستقامة) وجله عن مذهب التصوف، وله كلام في الصوفية في فتاويه ورسائله وفي كتب أخرى، بيَّن الحق فيها وكشف فيها زيفهم، وبيّن منهم الغالي وصاحب البدعة المكفرة والمفسقة، ورد على الحلولية وعلى الاتحادية وكفرهم، وذكر أئمتهم وبيّن شبههم ومخالفتهم لكتاب الله عز وجل وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكشف خطورة منهج التصوف على الدين؛ لأن الصوفية أماتوا الدين، وعطلوا النصوص، وأماتوا الجهاد، وشابهوا النصارى في قتل النفس، وفي منعها من المباح، وفي إزهاقها وتكليفها ما لا تطيقه من العنت والمشقة وركوب الصعاب، وابتداع طقوس ما أنزل الله بها من سلطان، وانتهاج نهج مخالف لأهل السنة في الأوراد البدعية التي تخالف الأوراد الشرعية في حركاتهم وفي سكناتهم، في موالدهم وفي اجتماعاتهم، في هيئاتهم، في خزعبلاتهم وترهاتهم، كل ذلك رائده الدليل والحق وليس الهوى والتشهي .

ابن تيمية وكلامه عن القدرية والجبرية

أهل السنة يثبتون لله قضاء وقدراً، فالذي قدّر الأمور هو الله عز وجل، سبق علمه ثم كتابته ثم مشيئته ثم إنفاذه لقضائه وقدره جل في عُلاه، وخالف في ذلك طائفتان؛ قدرية يرون أن الأمر لم يقدر وأنه أُنُف، وأنه لم يسبق علم من الله عز وجل، ومنهم من قال لم يسبق علم ولم يسبق كتابه، ومنهم من قال لم يسبق علم بل سبق تقدير، فأخطأ هؤلاء وهؤلاء، والصحيح أنه سبق علم وتقدير ومشيئة ثم إنفاذ، وقابلهم فرقة أخرى وهم الجبرية، وقالوا: إن العبد مجبور على فعل المعصية، وأنه لا مشيئة للعبد أبداً، بل هو كالريشة في مهب الريح، وكالميت بين يد الغاسل، فبيَّن ابن تيمية خطأ هؤلاء، وخطأ هؤلاء، وبيَّن أن للعبد مشيئه تحت مشيئة الله عز وجل، وأنه ليس مجبوراً على المعصية، وأنَّ له اختياراً تحت اختيار الله جل في عُلاه، وأن الحجة البالغة له سبحانه وتعالى، وأنه لا حجة لعاصٍ على الله تعالى بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

توقيع ابن تيمية

لابن تيمية كلام خاص يستميل العقول، وله عبارات أخّاذة مؤثرة تُعلم بالاستقراء أنها لابن تيمية، فمن سَبَر كتبه وقرأ رسائله وتبحّر في علومه حفظ له مصطلحات وجمل وكلمات كأنها من الأمثال عند الشعراء، أو من الشواهد عند البلغاء، حتى تصلح أن تُكتب في براويز وأن تعلق من جودتها ومن سطوعها، مثل قوله: إن المعاصي تمنع القلب من الجولان في فضاء التوحيد، ومثل قوله: ليس في العالم أحد يدور معه الحق حيثما دار إلا محمد ﷺ، فكلامه حجة على غيره وليس كلام غيره حجة عليه، ومثل قوله: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما قد يضر في الآخرة، ومثل قوله: عن الفقير والغني أفضلهما أتقاهما عند الله، ومثل قوله: علم الفلسفة كلحم جمل غث على رأس جبلٍ وعرٍ لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، ومثل قوله عن علم الفلسفة ـ أيضاً ـ: إنه لحم خنزير في طاسةٍ من ذهب؛ يعني أنه خبيث في عبارات براقة، ومثل قوله: من اعتقد أنه سوف يهتدي بهدى غير هدى الله الذي أرسل به محمداً ﷺ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس

أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً يوم القيامة، ومثل قوله: كل أرض لا تشرق عليها شمس الرسالة فهي أرض ملعونة، وكل قلب لا يهتدي بهدي هذا الدين فهو قلب مغضوب عليه.

الشاهد أن للشيخ عبارات برّاقة سارت بها الركبان، وحفظها الأذكياء من الناس، وصارت كالطابع على البريد، وكالختم على الخطاب، تُحفظ حفظاً وتنقل نقلاً.

عباراته

ابن تيمية له أسلوب خاص يُعرف بالاستقراء، حتى إن من أدمن النظر في كتبه يعرف كلامه ولو لم ينسب إليه، فلجزالته وفخامته وقوته وإشراقه تميز عن كلام غيره من العلماء، فليس فيه ضعف وليس فيه هشاشة، وليس فيه تصنع، وليس فيه تنطعٍ ولا تكلف؛ بل تجد النصوع والقوة والتدفق والجلالة، مع ما كساه الله عز وجل من بهاء؛ لأن صاحبه متبع للدليل، مؤمن بربه، صالح في نفسه، فأثَّر ذلك في كلامه حتى صارت عباراته أخّاذة يفيد منها الخطيب والواعظ والمؤلف والمصنف، وأصبح من أراد أن يقوي كلامه يأخذ في غضون حديثه كلاماً لابن تيمية فيصبح مقبولاً عند الناس، وهذا من فضل الله على هذا العبد الصالح الجليل، فليس فقط صلاحه في نفسه وتأثيره في كلامه، بل تأثيره في كتبه وعباراته الرائدة الرائعة.

استدلالاته

ابن تيمية ـ كما أسلفنا ـ صاحب دليل وبرهان، وهو يستدل بالنقل وبالعقل، ويستدل بالحال، ويستدل بالمشاهدة، وله في ذلك مقامات جليلة في عرض المسائل، فهو يعرض الآية ويشرحها ويفصلها، ويعرض الحديث الصحيح ويبينه، ثم يعرض الشبهة العقلية ويرد عليها برد عقلي، ويرد على القوم من كلامهم، ويظهر تناقض الخصوم ويبين عوارهم ويظهر زيفهم للناس، فهو ليس عاطفياً يجلب بخيله ورجله بلا برهان ولا دليل، بل يطيل النفس في الاستدلال، وتمضي معه حتى توافقه في استنتاجه وتعلم أن الحق معه؛ لأنه يذهب معك في طريق طويل، ثم يجمع في هذه الطريق كل ما يساند قوله من الحجة والبرهان والمثل والشاهد والآثار والاعتبار، كل ذلك مع نفس تأبى الظلم ولا تريد الباطل، وإنما تنشد الحق أينما كان.

طول نفسه

ابن تيمية ـ رحمه الله ـ واسع البطان وليس محدود الثقافة، فإذا كتب استطرد لجودة محفوظه وكثرة علومه وتعدد معارفه وتنوع تحصيله العلمي، مع ذاكرة جبارة هادرة غنية ثرية تثري الموضوع وتكفي وتشفي، فيطول نفسه ويسيل قلمه ويدخل من باب إلى باب، ومن علم إلى علم، ومن فن إلى فن، فلا يزيد إلا إشراقاً، ولا يزيد إلا لموعاً، ولا يزيد إلا عظمة وفخامة وجلالة؛ وسبب ذلك ما آتاه الله عز وجل من استعداد فطري للعلم، ومن قوة حافظته، ومن غزارة مادته، ومن صبر وجلد، يظهر ذلك في كتاباته؛ فأحياناً يوجز في الجواب ويقول قد بسطت ذلك في موطن كذا، وأحياناً يكرر الجواب ولكنه لا يكرره بفصه ونصه، بل يأتي بفوائد عجيبة وغريبة لم يوردها في الجواب الأول، وربما عرضت له القضية عشرات المرات فيجيب ويتكلم، ثم يأتي بفوائد لم توجد أصلاً في العشرات التي مرت، ويُسأل أحياناً عن مسألة فيجيب عليها، ثم يأتي باستطرادات عجيبة وطريفة وشريفة، تكون للسائل أفضل وأفيد من جواب السؤال الذي سأل عنه، وهذا منهج معروف في الشرع.

سرعة خطه

من لطائف سيرة الشيخ ابن تيمية أنه سريع الخط، فخطه أسرع من كلامه، إلا أنه معلق أشد التعليق ومغلق، يفكه بعض تلاميذه كابن رشيق وغيره، ولكن الشاهد أنه ربما ألف في اليوم الواحد أربع كراريس، وربما ألف في الجلسة الواحدة كتاباً (كالتدمرية)، و(الحموية)، و(الواسطية)، وقد دُرِّست كل واحدة منها في سنةٍ دراسية في الجامعات، وربما كتب كتاباً في عدة أيام، فكان يتناول القلم ثم لا يتوقف، وليس عنده أوراق ولا مراجع ولا كتب قريبة منه ولا مصنفات، وإنما يفيض الله سبحانه وتعالى عليه من فتوحاته، ومما استودعته ذاكرته العجيبة القوية، فتنهال عليه وتسخو، وتمطره بشآبيب من المعرفة، وتسح سحاً، وتسيل سيلاناً، وتتدفق تدفقاً، فيكتب سريعاً مملياً كل ما جاد به خاطره في الموضوع، من شرح لآية، أو بسط لحديث، أو كلام عقلي، أو كلام معرفي، أو كلام لخصومه من الفلاسفة وأهل المنطق وعلماء الكلام والفقهاء والصوفية، ومن سار مسيرهم من كافة الطوائف .

تعدد معارفه

سبق القول عن تفنن ابن تيمية في العلوم، وأضيف هنا إن ابن تيمية لم يكتف بمعرفة دون معرفة، ولم يتخصص في فن دون فن، بل أبحر وتعمق في كثير من الفنون والمعارف، حتى إنك إذا قرأت له في فن تظن أنه سخَّر حياته لهذا الفن فحسب، وأنه اعتنى بهذه المعرفة فقط، وما ذاك إلا لعدة أمور، منها: ما وهبه الله ـ عز وجل ـ من ذكاء بارع، ومن ذاكرة قوية، ومن جدٍ ومثابرة، ومن تفرغ للبحث والقراءة والاستفادة، ومن نفسٍ وثّابة وهمةٍ عالية لا ترضى بالدون؛ فإنه على سبيل المثال أتى إلى علوم أجنبية كعلم الفلسفة والمنطق وعلم الكلام فمهر فيها وأبحر ورسخ، ثم رد على أصحابها ونقض شبههم شبهة شبهة، وبين الحق في هذه المسائل، وقد رأينا وقرأنا لمن تبحر في علم الحديث مثلاً، فأفنى عمره في هذا العلم ثم لم يستطع أن يكون فقيهاً، ورأينا من رسخ في علم الفقه ومهر فيه ثم لم يستطع أن يكون محدثاً، ورأينا من تخصص في علم التفسير وأمعن النظر فيه فصار مفسراً، لكنه قصر

في علم الحديث وعلم الفقه، فما بالك بمن ألمَّ بعلوم الإسلام علماً علماً، ثم أتى إلى العلوم الوافدة الغريبة فمهر فيها علماً علماً، فأتى بالعجب العجاب!.. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

تنوع أساليبه

ابن تيمية له أساليب متعددة في طرحه للموضوع؛ فمرة يوجز العبارة إذا رأى أن المقام لا يحتمل الإكثار، ومرة يبسط القول ويسهب، ومرة يذكر الدليل إذا علم أن السائل بحاجة إليه، ومرة يكتفي بإيراد الجواب والكلام فحسب، ومرة يذكر الأقوال المتعددة في الباب، ومرة يكتفي بالقول الراجح، وأحياناً يذكر الأدلة بإسهاب سواء العقلية أو النقلية، ومرة يكتفي بالنقل في الباب، وأحياناً يصرح بأسماء أصحاب الأقوال، وتارةً يكتفي بذكر الأقوال دون نسبةٍ إلى قائليها، وأحياناً يأخذ الجزئية من المسألة فيذكر ما قيل فيها من القديم والحديث حتى تأتي في مجلد، وأخرى يأتي بها في أسطر، وأحياناً تجده يرد على الأقوال الضعيفة في المسألة ويبين الراجح، وأحياناً يبين الراجح دون أن يرد على الأقوال الأخرى ويكتفي بذكر الصحيح في الباب.

تأليفه

ترك ابن تيمية للمكتبة الإسلامية تراثاً عامراً وتركةً مباركة، فهو من أكثر من ألف على طول تاريخ الإسلام من أهل العلم، لكنه تأليف جادٌ مفيدٌ نافعٌ باقٍ بإذن الله، وهو من العمل الصالح الذي يبقى لصاحبه، ولا أعلم عالماً نفع الله بتأليفه الأمة في عدة فنون كهذا العالم، صحيح أن أحمد بن حنبل ـ مثلاً ـ، أو البخاري، أو الشافعي، أو مالك، لهم تآليف نافعة، لكنها في أبوابها جزاهم الله خيراً عن الإسلام، غير أن ابن تيمية ترك عدة تآليف في عدة فنون؛ فنفع أهل الإسلام في باب التفسير، والفقه، والمعتقد، وأصول الفقه، والمنطق والفلسفة، وعلم الكلام، إلى آخر ذلك، فهو مفيد في عدة أبواب، نافع في كثير من الفنون، والعجيب في تآليفه أنها سارت بها الركبان، وصارت حديث الناس، ودخلت الجامعات، واستفاد منها أهل العلم على تعدد مشاربهم، فما بين مختصرٍ وشارحٍ ومستفيد وناقل وجامعٍ.

ابن تيمية ليس ناقلاً فحسب

فرق بين أن يؤلف الإنسان كتاباً فينقل الأقوال ويجمعها في الباب، وأن يأتي إلى الأقوال فينتقدها ويناقشها، ويأخذ الصحيح منها ويترك الضعيف، ويستفيد من العبارات ويقوّم المعوج منها، ويثني على الطيب ويعقّب على الواهن والضعيف، وهذا ما يفعله ابن تيمية؛ فإنه لا يقبل القول على عواهنه، بل يناقش الأقوال عبارة عبارة، وفصلاً فصلاً، ويشيد بالحسن الجميل، ويرد الواهي الهزيل، وتجده يتجرأ حتى على الأكابر في كثير من المسائل، ويبين الوهم في كل مسألة، ويجمع أطراف الموضوع، ويأخذ المعلومة فيوظفها هو بعبارته ويكسوها بجلباب جمله القوية الآسرة الأخاذة؛ فإن له قاموساً خاصاً، فيه من الجلالة والفخامة والإشراق ما امتاز به هذا الرجل، فكأنه شاعر موهوب عبقري يمتاز عن بقية الشعراء، وكذلك كان ابن تيمية في المؤلفين، له رونق خاص، وديوان متفرد يُعلم أنه من كلامه لجلالة حديثه وسمو عباراته.

ابن تيمية ومسألة التوحيد

من أعظم المسائل التي يجب البحث فيها والكلام عنها مسألة التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقد أحسن ابن تيمية كل الإحسان في هذه المسألة، فاستولت على جل حديثه وكتاباته ورسائله وتأليفه، واعتنى بها كل العناية؛ لحاجة البشر إليها، فالله - عز وجل - لم يرسل الرسل أصلاً ولم ينزل الكتب إلا لتقريرها، فبسطها شيخ الإسلام بأنواعها كتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتحدث عن أفعاله سبحانه وتعالى، وتحدث عن مسألة الشرك بأقسامه وبينها برسائل ومؤلفات، وبسطها في عدة مواطن، ونوّع الأساليب فيها؛ لأنه يعلم أنها أصل الأصول وأنها أكبر المسائل وأنها أعظم القضايا، فهو بحق منظِّر أهل السنة والجماعة في مسألة التوحيد، وهو إمامهم من عصره فما بعده في قضية المعتقد، وهو الذي أقام هذا الفن وشرحه ودافع عنه وناظل عن قضاياه وبين الحق في ذلك.

ابن تيمية ومسألة التاريخ

نقل الذهبي وغيره أن الشيخ مؤرخ، وأنه يعتني بتاريخ الدول والرجال والسلاطين، وما سلف من كافة الأمم والشعوب، ومن يقرأ بعناية لتأليف ابن تيمية يلحظ ذلك، حتى إنه يلحظ اهتمامه بتاريخ ما قبل الإسلام، حتى القضايا التي لا يهتم بها أهل العلم، في الغالب تجده متبحراً فيها ملماً بها؛ فمثلاً سُئل عن الإسكندر المقدوني، فبيَّن أن الإسكندر اثنان، ثم شرح تاريخ كل واحد منهما، وتجده يعتني بالدول والأشخاص من الأمراء والوزراء الذين مروا والسلاطين، حتى ولو كانوا من دول غامضة ليست معروفة عند الكل؛ وسبب هذا حبه للاطلاع، وشغفه بالمعرفة، وولهه باكتشاف المخبوء من العلوم والفنون والتخصصات، وقد نفعه ذلك في أن تكون له عقلية ثقافية متسعة، وذهنية مطلعة متوثبة.

جلده على البحث

الذين تكلموا عن ابن تيمية وصفوه بأنه لا يكل ولا يمل من البحث كما أسلفت، حتى في أوقات انشغاله ومرضه كان يجعل الكتاب على صدره، وربما أكب عليه، فهو دائماً في بطون الكتب، يذهب وراء المسألة في كل كتاب، فتكون شغله الشاغل حتى يلم بها ويحققها ويرسخ فيها ويجيد الحديث عنها، فلا يكتفي بكتاب عن كتاب، ولا بعالم عن عالم، ولا بمذهب عن مذهب، بل يستطرد وراء المسألة، ويكتنز شواردها، ويجمع فرائدها، ويلم بها إلماماً، حتى يكفيك كلامه عنها في أي باب عن أي مؤلف، أو أي عالم من العلماء .

صبره على التحصيل

لا يحصل العلم الذي جمعه ابن تيمية إلا بصبرٍ على الطلب، وجلد على التحصيل، وكذلك كان هو فإنه استفرغ عمره كله ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، حِلاً وترحالاً في طلب العلم، فكان يدور على المشايخ، حتى دار على أكثر من مائة عالم، وجلس مع أرباب الفنون، وناظر أهل المذاهب، وناقش أرباب المقالات، وزار أهل التخصصات، كل ذلك وهو يلُمُّ ويحوي ما عندهم ويجمع ما لديهم، فتراه مكرراً لما يحفظ، أو متأملاً، أو كاتباً، أو مناقشاً، أو مناظراً، أو مجادلاً، أو مفيداً، أو مدرساً، أو مؤلِّفاً، أو مراسلاً، فكانت حياته علماً وعملاً، ولا أعلم رجلاً من المتأخرين دفع عمره كله للعلم والتعليم كابن تيمية، ربما وجدت علماء تفرغوا للعلم ولكن ليس كل التفرغ؛ فعندهم ما يشغلهم من الزوجات والأبناء والمناصب والوظائف، لكن ابن تيمية ليس له أسرة يقوم عليها، ولا أبناء يشتغل بتربيتهم، ولا تجارة يهتم بها، ولا وظيفة يقوم عليها، ولا منصب يزاوله، إنما شأنه وقضيته الكبرى هذا العلم، وتعلمه، وتعليمه، والعمل به.

دأبه في نشر العلم

مما زاد محبتنا لهذا الإمام أنه نشر علمه نشراً لم يُسمع بمثله، نشره بعمله، فكان كل من يقرأ سيرته ويعايشه ويعرفه تمام المعرفة يتأثر بسيرته وأخلاقه وأوصافه، ـ وهذا نوع من أنواع نشر العلم ـ، وكان يتكلم في مجالسه كلها عن العلم، النافع المفيد، فلم يشتغل بقضية غير العلم، وليس له حديث في أمور الناس، ولا في أسعارهم أو أخبارهم، ولا فيما يتحدثون عنه، ولا في نكاتهم أو مزاحهم، ولا في أخبار سفرهم وإقامتهم، ولا في صنوف معايشهم، إنما همه وشغله وقضيته نشر العلم النافع المفيد.

فقد نشره بواسطة تدريسه، فكان يعقد الحلقات في المساجد ليلاً ونهاراً لا يشغله عن ذلك شاغل، وكان ربما عقد الندوات للمناظرة النافعة المفيدة، وكان ينشره بواسطة الرسائل التي عمت وانتشرت وبهرت الموافق والمخالف، وكان ينشره عبر الكتب النافعة المفيدة التي تصل إلى عشرة مجلدات أو أكثر، وكان ينشره عبر الذهاب إلى الناس في أماكنهم وإلى الملوك وإلى السلاطين وإلى الأمراء، وكان لا

يجلس مجلساً إلا أنشأ قضية، أو تحدث عن مسألة، أو تكلم في باب من أبواب العلم؛ فكان إما مذاكراً أو مستفيداً أو شارحاً أو مؤلفاً أو مراسلاً أو خطيباً أو مفتياً، حتى في سجنه؛ كان بعد أن ينتهي من عبادته وأوراده يشتغل بمراسلة الناس بالفتاوى والكتابة في العلم .

صموده رغم المعوقات

فابن تيمية لم يثنه ما حصل له من الأذى والكيد والمكر والمجابهة والمواجهة، بل زاده ذلك قوة وإصراراً ومضاءً واستمراراً، فإنه واجه من الحسد ما الله به عليم حتى من أقرب المقربين إليه؛ فحسده أرباب المذاهب الإسلامية، وأهل المشارب الفقهية، وحسده علماء الكلام، وحسده أهل الطوائف من غير أهل السنة، وآذاه كثير من الولاة والسلاطين، فافتروا عليه ونسبوا إليه ما لم يقل، وألفوا فيه الكتب والرسائل، وأهدروا دمه، وأفتوا بقتله، وضللوه، ودعوا السلطان إلى سجنه.

وبالفعل سجن خمس مرات، وكادوه، ومنعوا كتبه، ومنعوه من التدريس، ومنعوه من الحديث ومواجهة الناس، وتناولوا عرضه، وشتموه وسبوه، وجُلد مرة من المرات، وأُخرج من دمشق إلى مصر، كل ذلك والرجل منشرح الصدر، صابر مصابرٌ محتسب على ما أصابه في سبيل الله، مصرٌّ على تبليغ فكرته، مستمر على الدعوة إلى الله عز وجل، لا يزيده الكيد إلا قوة وثباتاً وصبراً واحتساباً، فصار مضرب المثل

في ذلك كلـه، وتعجب أصدقاؤه وخصومه من شجاعته ومن إصراره ـ رحمه الله ـ، فما ثناه حبسٌ ولا قيدٌ ولا جلدٌ ولا ردودٌ ولا تهديدٌ ولا وعيدٌ عن ما قام له من تجديد أمر الأمة، بل كلما آذوه ازداد نشراً لعلمه، وصبراً على خصومه، وحباً لأصحابه، وثقة في موعود ربه، وتفويض الأمر إلى خالقه، ورضاً بكفايته ووكالته ـ سبحانه وتعالى ـ، وتفاؤلاً بالعاقبة الحسنة، وبذلك صارت له ـ بفضل الله ـ العاقبة الحسنة، فانتشرت كتبه وتآليفه، وانتصر على حاسديه، وكُبت خصومه، وصارت الدولة له والدائرة على أعدائه.

ابن تيمية ونفسه الجادة

من يقرأ سيرة هذا الإمام بالتفصيل يرى الجد والمثابرة في سيرته العملية والعلمية، فهو لا يعرف الهزل ولا الدعابة القاتلة، ولا صرف العمر في حواشي المسائل أو اللهو واللغو والعبث، أو فضول العلوم والأعمال، بل كان يختار أنفع المسائل وأفيد الأعمال وأفضل القربات، فهو الجد كله وكأنه منذر جيش، وكأنه مدعو للقاء الله في كل غد.

فهو يحرص على العمل النافع المثمر المفيد من الأقوال والأعمال والمؤلفات والرسائل، فلا يختار إلا أحسن الأبواب، فتجده يؤلف في الأسماء والصفات؛ لأنه يعلم أنها من أجل العلوم بل من أفضل الأبواب، ويستفرغ جهده في باب المعتقد وفي مسألة التوحيد، فيبسط القول في ذلك أكثر من بسطه في فروع المسائل، حتى إنه ألف في الأصول أكثر مما ألف في الفروع، وسئل عن ذلك فقال: مَنْ عبد الله في الفروع على مذهب أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد فقد أصاب في الجملة، لكن الخطورة أن يخطئ الإنسان في المعتقد أو الأصول؛ ولذلك كفى الأمة في هذا الباب أثابه الله.

ابن تيمية وأسلمة العلوم

هذه عبارة عصرية حادثة، ولكنك إذا نقلتها إلى عصر ابن تيمية تجده يؤسلم المعرفة، فإنه يأتي بالعلوم الداخلة والفنون الوافدة على المسلمين فيضعها في ميزان الكتاب والسنة فيقبل الصحيح منها ويترك المخالف ويطّرح المرذول، وهذا ما يطلق عليه أسلمة المعرفة، فكلما سمع بفن قرأه وأبحر فيه ثم عرضه على منهج الوحي، وحاكمه في محكمة الرسالة الخالدة، وعلى ميراث محمد ﷺ، فإن وافق رضيه وقبله وقال هذا تحصيل حاصل فهو لدينا، وإن خالف رده مهما كان قائله ومهما كانت قوة هذا القول .

ابن تيمية ومشروعه الإصلاحي

ابن تيمية ليس كغيره من كثير من العلماء الذين همهم ـ فقط ـ التحصيل والنفع في محيطهم وبني عصرهم، بل له مشروع إصلاحي يهمه ويؤرقه؛ وهو إعادة الناس إلى الكتاب والسنة، وهو ما يسمى (بالتجديد)، إذْ تلحظ عليه التقعيد لهذا الباب، والنظرة العامة الشاملة للأمة، والهم لإعادتها إلى كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسولهﷺ، وتصحيح مسارها، وتوضيح الطريق الذي صار ملتبساً على كثير من الناس، فليس همه فقط أن يتخصص في الفقه ليكون مفتياً أو قاضياً أو خطيباً أو معلماً، لكن همه أن يجدد للأمة ما دَرَس من دينها، وأن يعيدها إلى الجادة الأولى التي كان عليها أصحاب رسول اللهﷺ والتابعون بإحسان، وهذا هو المشروع الذي ترك أثره ونفعه في الأجيال.

وإني أقول كلمة حق: لو أن علوم هذا الإمام انتشرت في الجامعات الإسلامية والمدارس وقامت بها الجماعات الإسلامية والحركات الإصلاحية، لكان فيها من النفع العظيم والإصلاح والتجديد ما كفانا وشفى غليلنا وأروى عليلنا في

هذا الباب، ولما وجد - بإذن الله - هذا التخبط والالتباس في بعض المدارس الفكرية وبعض الدعوات الإصلاحية، من غبش في مسألة المعتقد، ومن انحراف، ومن بدع عند البعض؛ لأن هذا الرجل - مع ما أوتي من نظرة شاملة ومن تجديد وإصلاح - فيه من الصفاء والصواب والتسديد ما الله به عليم .

ابن تيمية ونظرته الربانية

علم هذا الإمام علم مبارك، يقول بعض المعاصرين: ومن كرامات الأولياء ما وهبه الله عز وجل ابن تيمية من علم، فتجد غيره أُعطي علماً على حسب ما حصَّل وما حفظ، وعلى حسب ما وجد من الكتب والمشايخ، إلا هذا الإمام وأمثاله فإن علمه علم مبارك غزير، لا يمكن أن يكون بجهد بشري فقط، لكن بموهبة إلهية ربانية، وكذلك كان نشره للعلم، فقد كان نشراً ربانياً لا يريد من ورائه سمعة ولا رياءً ولا جاهاً ولا مالاً ولا مكانةً ولا منصباً ولا وظيفة، بل نشره خالصاً لوجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ، مبتغياً ما عنده من ثواب جزيل في الدار الآخرة.

فبارك الله بأنفاسه وبكتبه وبرسائله وبدروسه؛ إذ كان لها من الأثر والنفع ما تلقته الأجيال بعد الأجيال، وتشاغل به الناس، واهتم به الكثير، واستفاد منه العامة والخاصة، وما زالت في ازدياد وانتشار، وفي بركة وزيادة، وهذا من الفضل الذي وهبه الله هذا الإمام، فإنك تجد في كلامه من النور، ومن النفع والبركة ما لا تجد في كلام غيره، فإنه يغذيك

بصـفـحـات مما يكتـب، ويزيـد من مـعـرفـتك، ويزيد من إيمانك؛ لصـحـة نيته ولصـدقـه مع الله عـز وجل، وإخـلاصـه فيمـا يقـول وفيما يكتب، وهـذا هو العلم المبارك النافع المفيد .

ابن تيمية والرسوخ العلمي

ابن تيمية لا يجتزئ المسألة اجتزاءً، ولا يأخذ بطرفها، وليس بالذي يريد الإشارة إليها مجرد إشارة، لكنه العالم الذي يقتل المسألة بحثاً، فيستولي على أطرافها، ويفصلها تفصيلاً، ويشرحها شرحاً كافياً، بعد الإيمان بها دراسةً وبحثاً وتحصيلاً، وهذا هو الرسوخ في العلم، وإذا لم يكن ابن تيمية راسخاً في العلم فمن هو الراسخ إذاً؟ والرسوخ هو العمق والاستيلاء على المسائل، والفهم كل الفهم فيها، والتفقه كل التفقه في دلالتها، وكذلك كان ابن تيمية، فإنه يتكلم عن المسألة الواحدة كلام بصيرٍ بها عارفٍ بوجوه الاعتراض عليها، مبيناً أطرافها، كلمة كلمة، وفصلاً فصلاً، وباباً باباً.

ابن تيمية وفقه النصوص

ميزة هذا الإمام أنه صاحب نص؛ مهتمٌّ بقول الله عز وجل وقول رسوله ﷺ، وليس مجرد حافظ وناقل للنص، بل يورد الآية والحديث، ثم يشرحهما مستفيداً من كلام الأئمة الذين سبقوه، ثم يأتي هو - بفهمه المتدبر المتعقل لكلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ - بكنوز وبدرر وبجواهر ما سُمع بمثلها، فميزته الكبرى الفقه كل الفقه، والفهم كل الفهم، حتى إنه يرد على الأكابر من المفسرين ممن تظن أن الواحد منهم فرد في بابه، ومع ذلك يلاحظ وينتقد ويعترض ويقول إن القول الصحيح في تفسير هذه الآية وفي شرح هذا الحديث وفي هذا المعنى هو كذا وكذا، كلام رجل مدرك لمقاصد الشريعة، ملمٍ بها، عارفٍ بمدلولات النصوص، متبحرٍ في اللغة، متعمقٍ في النحو، صاحب عقلية مستنيرة ربانية مباركة .

ابن تيمية والمعاصرة

لما حوى ابنُ تيمية الفنون وجمعها نفعه ذلك في أن يكون له أسلوب عصري متميز، غير متخلٍ عن مبادئه وأصوله الأولى السلفية السنية، ولكنه يكسو كلامه بجلباب المعاصرة وبعبارات من عاصروه من العلماء، بل بالعبارات الجميلة التي تأخذ بالألباب، فهو يرى أنه لا مشاحة في الاصطلاح، وأنه لا غضاضة في أن يوظف الإنسان ثقافته، وأن يستفيد من مصطلحات معاصريه إذا كانت جميلة وكانت قوالبها أخاذة مؤثرة، لتحمل الحق الذي أخذه من الكتاب والسنة؛ ولذلك كان يتكلم للفلاسفة بمصطلحاتهم، وللمتكلمين بجملهم، وللصوفية بإشاراتهم، وللمعاصرين من الفقهاء بكلامهم، وهذا الذي يسَّر له الانتشار، والعموم، والاهتمام .

معرفته بالخصوم

من يقرأ لهذا الإمام وردوده على خصومه يعلم أنه ليس صاحب هوى، وليس مقصوده الانتقام الشخصي، بل نصرة الملة، فإذا أتى إلى الخصم تكلم كلام معرفة بقول هذا الخصم ومن هو الخصم، حتى يدخل في حياته الشخصية، فتجده أحياناً يرد على الفكرة الخاطئة، ثم يأتي بصاحبها فيتناوله بالنقد، ويتكلم عن حياته مفصلاً؛ كما قال عن ابن سبعين وعن ابن عفيف التلمساني، فإنه يقول: إن هذا ليس عفيفاً بل هو فاجر، وهو صاحب خمر وصاحب معاصٍ ومخالفات، ثم يذهب وراء حياته الشخصية فينتقده، فالرجل لا يتكلم عن خصومه بجهل، لكنه يتكلم بعلم ومعرفة عن حياتهم وأقوالهم وكتبهم، وتجده أحياناً يثني على بعض الجوانب التي تستغرب أن يلم بها، فلما تكلم ـ مثلاً ـ عن ابن الخطيب الرازي بين أن له قصائد يشكر عليها، وأنَّ له ردوداً على الملاحدة يحمد عليها، رغم ما عنده من بدعة ومخالفة للسنة .

هروبه من المناصب

أتت الدنيا ابن تيمية راغمة، ولكنه ردها بنفس راغبة عنها وعن مناصبها وزينتها وزخرفها وأموالها، أعرض عنها قاصداً عامداً متعمداً، وترك المشيخة ورئاسة القضاء والولايات وما أعطي من أموال، تركها كلها لوجه الله، وأعرض عنها وردها واكتفى بمسجده وبيته الصغير، ينشر العلم ويجاهد ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأنزله الله منزلة فوق منازل قاضي القضاة، وفوق منزلة الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والتجار، فبقي أثره في الأمة، وانتشر علمه، أمَّا كُتبُ قاضي القضاة ـ مثلاً ـ وكتب أهل الولايات، فإنها لا توجد في الغالب، وليس لها ذاك الأثر، ولم يسمع بها، ولم تنتشر، ولم يتناقلها الناس، ولم تدرس في المدارس، بل فقد الكثير منها، وما وجد منها فإنما هو محصور في زوايا ضيقة، لم يكتب له ذاك الانتشار، ولم يُستفد منه تلك الفائدة، ويكفي ابن تيمية أن تراثه أكثر انتشاراً وشهرة ونفعاً للأمة، وأنه أكثر أثراً من كثير من الدول، بل لو قلتُ جازماً غير مغالٍ إنه أنفع للمتأخرين من الدولة العباسية التي عاشت ستمائة سنة

وحكمها سبع وثلاثون خليفة، لما كنت مبالغاً في ذلك؛ فإن نفعه في كتبه ورسائله انتشر في الجامعات والمدارس وعلى المنابر وفي حلقات العلم، وفي وسائل الإعلام، وفي المنتديات والمؤتمرات، ما لم ينتشر أثر هذه الدولة التي عاشت هذا العمر الطويل .

ابن تيمية يصنع التاريخ

ابن تيمية - في حقيقة الأمر - صار حديث الركب، وصار قضية الناس، وصار الشغل الشاغل للعالم في عصره وبعد عصره، حتى يحق فيه قول القائل: إنه مالئ الدنيا وشاغل الناس!.. يقول فيه المستشرق جولد زيهر: وضع ابن تيمية ألغاماً في الأرض فجر بعضها محمد بن عبدالوهاب، وبقي بعضها لم يفجر حتى الآن! وإنك لتجد ابن كثير في (البداية والنهاية) - مثلاً - وهو يتحدث في عصر ابن تيمية يجعله الشغل الشاغل، فأحياناً ينسى من تاريخ الدولة ويذكر ابن تيمية وحده فيقول: دخلت سنة كذا وكذا وكان ابن تيمية في جبل كسروان يجاهد النُصيرية، ودخلت سنة كذا وكذا وكان ابن تيمية في الحبس، ودخلت سنة كذا وكذا وقد ذهب ابن تيمية من الشام إلى مصر، فصار هذا الإمام هو القضية، فهذه هي المكانة والمنزلة، وهذا هو المجد والعظمة، وهذا هو الشرف والملك الباقي، حيث صار هذا الإمام بحق هو شغل الناس الشاغل، متشاغلين بردوده وكتبه؛ إن سُجن انشغلوا به، وإن أُفرج عنه صار حديثهم، إن ذهب وغاب صار قضيتهم، وإن حضر صار أحدوثتهم، فهو العلم والإمام الذي نشر له هذا القبول بسبب صدقه مع ربه سبحانه وتعالى.

ابن تيمية داعية

من أعظم صفات العالم أن يدعو غيره إلى ما يحمله من علم، وأن ينشـر مـا حـصله، وأن يبلغ عن الله عـز وجل وعن رسوله ﷺ ما استودعه من ميراث، وكذلك كان ابن تيمية؛ فإن مما يميـزه بين العلمـاء أنه تحـرك بعلمـه، ودعـا إلى الله بعـمله ومقـاله وقلمـه وكتبـه ورسـائله، فلم يقتصـر علمـه على الفتيـا فحسب، ولم ينتظر في بيته ليأتيه الناس، بل ذهب إلى غيره وزار الأماكن العامة، وتكلم مع الخاصة، ودخل على السلطان، وحاور الفرق المخالفة، وناظر المبتدعة وراسل الأقاليم، فكان بحق رجلاً مباركاً أينما كان، وهذا من بركة العلم ومن فضل الله سبحانه وتعالى عليه؛ فإن أحسن ما يكون في العالم إذا عمل بعلمه أن يدعو إلى هذا العلم المبارك، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وكذلك كان هذا الإمام المقدم في بابه وفي صفاته، كان مضرب المثل في نشاطه الدعوي، وفي حركته الإصلاحية وفي تجديده العالمي.

تأصيله للمسائل

ابن تيمية لا يلقي الكلام على عواهنه، ولا يأتي بكلام متفرق لا رابط له، وليس بحاطب ليل، بل هو الراسخ في علمه ـ كما أسلفنا ـ، فكان إذا أتى بمسألة أصَّلها، وذكر منشأها وأسها، وردها إلى قواعدها، فهو مهتم بالتأصيل وبالقواعد الكلية وبجوامع المسائل اهتمام رجل سبر غور الشريعة، وعرف مقاصدها، وأدرك أسرارها، وكشف غوامضها، وغاص على دُررها، فكان إذا ظن أن السائل لا يفهم المسألة رجع إلى أصل المسألة، ثم فرَّع على هذا الأصل ورد السائل إلى هذا الأصل، وضرب أمثلة بجزئيات كثيرة على هذه الكلية، وذكر أمثلة لفروع هذا الأصل حتى يشفي ويكفي ويكون السائل على بصيرة .

تكريره وبسطه

لابن تيمية طرق في الإجابة، وطرق في التأليف، وطرق في الفتوى وفي عرض المسائل؛ فمرة يكرر الجواب إذا علم أنه لم يُعلم من مرةٍ واحدة أو مرتين، وهو يقول: إنه لابد للحق من أساليب متنوعة ومن أطروحات شتى حتى يُفهم ويُعرف، وكلما كرر أبدع وأحسن وأشرق، وأحياناً يكتفي بجواب واحد، لكنه يبسطه ويكثر الإيراد عليه، ويأتيه من عدة جوانب، ويطرقه من عدة أبواب، ويفتح له السبل، حتى تنكشف للقارئ المسألة بطول ما يبسطه الشيخ وما يذكره من أدلة، وأمثلة، ومن شواهد، وقصص، ومن شرح، حتى لا يدع مجالاً للغموض أو التساؤل.

جرأتــه

الشجاعة القلبية موهبة من الله عز وجل، وثبات النفس عطية يمنحها الله من يشاء من عباده، ومن مزايا هذا الإمام أنه ثابت الجنان، قوي القلب، لا يهاب المواقف، ولا يخاف الموت، ولا ينكص على عقبيه طمعاً في الحياة وعشقاً في البقاء، بل يقدم إقدام من باع نفسه من الله عز وجل، فلا يخاف من بشر، ولا يرهب إنساناً، إنما خوفه وخشيته من ربه سبحانه وتعالى، فهو المتوكل ـ حقيقة ـ على الله، المفوض أمره إليه، قال أصحابه وطلابه ما رأينا أشجع قلباً، ولا أقوى عزيمة، ولا أمضى شكيمة، ولا أثبت جناناً من ابن تيمية، كان يُهدَّد بالسيف فيمضي صابراً محتسباً ولا يخاف، وسجن عدة مرات فما رهب وما عاد عن رأيه، ودخل على الملوك فكاد يزلزل عروشهم بكلامه القوي الصادق العميق، وكان يشرح فكرته في كل مكان، وكان إذا دخل بلاط السلطان كأنه يخطب خطبة الجمعة، فيكون لصوته صولة، وله جولة وهيبة، وعليه مهابة، فلله دره ما أقواه!..

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتَّالُ!

تعظيمه لربه

لا خير في علم العالم ولا دعوة الداعية إذا لم يعظم بذلك ربه ومولاه ويوقره، ويكون أحب إليه مما سواه، ويخافه أكثر من غيره، ويرجوه ويرهبه، وكذلك كان ابن تيمية فتعظيمه لربه ـ سبحانه وتعالى ـ ظاهرٌ من كتاباته وفي رسائله وتآليفه، حتى قال بعض الفضلاء من المعاصرين: كنت إذا ضعفت في إيماني عدت إلى المجلد الأول في (الفتاوى)، وقرأت تعظيم ابن تيمية لربه، ومدحه لمولاه، وكلامه عن قدرة خالقه سبحانه وتعالى وعن أسمائه وصفاته، بأسلوب عجيب يأخذ بمجامع القلب، ويستولي على منافذ النفس، وهذا ملاحظ، فتجده إذا ذكر اسم الجلالة عظَّم ومدح وأثنى، وهو يذكر آلاء الله عز وجل، ويحبب ربه إلى خلقه، ويقدس مولاه وينزهه، ويتكلم عن أسمائه وصفاته بكلام لم أره لمن قبله من أهل العلم؛ فإنه يعظم الله بما عظم الله به نفسه في كتابه، وما عظمه به رسولهﷺ في السنة، وبكلام السلف، ويورد إيرادات عجيبة، يكاد ينخلع لها القلب، وتدمع لها العين، ويقشعر لها الجلد، فلا تقرأ له مقالاً في تعظيم الله عز وجل إلا وتزداد إيماناً ويقيناً ومحبة وتعظيماً لربك سبحانه وتعالى، وهذا من بركة العلم، ومن فتح الله عليه.

توقيره لرسول الله ﷺ

توقير الرسول ﷺ أمر واجب، ومحبة الرسول ﷺ فريضة، والانقياد إلى أمره والإنتهاء عن نهيه حتم، وابن تيمية تلميذ بار في مدرسة الرسول الله ﷺ، وطالب نجيب في جامعة الرسول ﷺ المباركة، فقد كان يوقر رسول الهدى ﷺ ويحترمه وينصر أقواله، ويقدم قوله على قول كل قائل من الناس، ويقول ليس في العالم أحد يدور معه الحق حيثما دار إلا محمد ﷺ، ودافع عن رسول الله ﷺ، وأوذي بسبب هذا الدفاع، وألف كتابه الشهير (الصارم المسلول على شاتم الرسول) ﷺ. إنك تجد في غضون كلماته من إنزال الرسول ﷺ المنزلة اللائقة التي أنزله بها ربه ما الله به عليم، وتجده إذا ذكرَ الحديث ذكره ذكر مقدرٍ له، محترمٍ إياه، متحاكم إليه، وليس كإيراد أهل الرأي أو الفلاسفة أو علماء المنطق، الذين أعرضوا عن السنة وقدموا العقل على النقل، بل كان يتحاكم إلى كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ويرد الناس إليه، ويرى أنه الحجة القاطعة إذا صح، وأنه لا يسع أحداً في العالم أن يخرج على أمر الرسول ﷺ.

عدله وإنصافه

بنى الله السموات والأرض وخلقهما على العدل، والظلم جريمة بشعة سواء كان في الأقوال أو الأعمال، ومما يلحظه المطلع على ميراث هذا الإمام العدل في ردوده، والعدل في أجوبته، وطلب الحقيقة، فليس بالمتشفي، ولا بالجائر، ولا بالظالم، ولا بالذي يهضم الناس حقوقهم ويبخس الناس أشياءهم، ولا بالذي يتجنى عليهم، ولا بالذي ينسب إليهم ما ليس فيهم، وليس بالذي يفرح بغلطات أهل الخير من علماء الإسلام، بل تجده يرد رد منصف طالب للحق، وكان يردد كثيراً التحذير من الجور ومن الحيف، ويبسط كلامه في مسألة: ﴿وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾؛ فيبين كيف وقع الظلم والجهل في الأقوال والأعمال، ويربأ بطالب العلم وبالعالم أن يجور في الحكم على الأشياء، وأن يحيف ويظلم غيره، ويحذر من ذلك أتم التحذير.

ابن تيمية والوسطية

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، والتوسط في الأمور يدل على العلم التام، والخشية المتناهية، والعقل الراجح، وكذلك كان شيخ الإسلام؛ فهو يحمد ربه ـ سبحانه وتعالى ـ أن أهل السنة وسط في المسائل، كما أن أهل الإسلام وسط في الدين والملة، فهم وسط بين اليهود والنصارى، وكذلك أهل السنة وسط في باب الأسماء والصفات بين المجسمة الممثلة والجهمية المعطلة، ووسط في القضاء بين القدرية والجبرية، ووسط في الوعد والوعيد بين المرجئة والخوارج، ووسط في حب أهل البيت بين النواصب والروافض، ويستمر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في تعداد هذا الوسط، ويدعو إليه وينهجه ويحببه ويعتنقه، وإن من نعم الله ـ عز وجل ـ على طالب العلم وطالب الحق وحامله أن يكون وسطاً في كل أموره، حتى في أخلاقه وسلوكه، فإن الدين جاء بالوسط لا إفراط ولا تفريط، لا غلو ولا جفاء، القصد القصد تبلغوا كما في الحديث، والتوسط في الأمور هو المحجة الصحيحة التي ينبغي أن يسلكها طالب العلم في أقواله وأعماله.

ابن تيمية وروح التجديد

ابن تيمية نسخة لم تتكرر إلى الآن في حد علمي، فليس كغيره من آلاف العلماء الذين نشؤوا في الأقاليم والمدن، فكرروا أنفسهم، وكرروا غيرهم، فتجد القاضي سبقه آلاف القضاة وأتى بعده آلاف القضاة، وهو نسخة طبق الأصل لهؤلاء في علمهم وفي فهومهم وفتاويهم وأحكامهم، وليس كغيره من المفتين الكثر ـ مع أن الله نفع بهم ـ، لكنهم يحفظون متوناً، ويكررون الكلام السابق لأئمتهم، ويتعصبون لمذاهبهم، ويقلدون شيوخهم، ولا يخرجون قيد أنملة عن ما تلقوه من أرباب المذاهب، أما ابن تيمية فإنه لم يأت ليحفظ متناً ويدرسه ويعلمه الناس، بل أتى مجدداً لشريعة ربانية اندرست معالمها قبل القرن الذي كان فيه، فأتى ـ بفضل الله ـ في وقته المناسب وفي زمانه وفي مكانه، أتى يدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة عودةً صادقة، وينبه الناس أنهم وهنوا في الإعراض عن الدليل، وأنهم قد أخطؤوا خطأً بيناً في التهاون بالتمسك بالنص، ويبيِّن أن البدع إنما دخلت على الأمة ببعدها عن الوحي، فصاح في الأمة صيحة قوية عالية سمعها من شاء

الله أن يسمعها، صيحة تدعو الناس إلى العودة إلى المعين العذب الزلال الذي لا ينضب؛ وهو الوحي المبارك كتاباً وسنة، فدعا إلى التجديد في باب المعتقد، وفي باب العبادات والمعاملات، وفي الأصول والفروع، وفي الأخلاق والسلوك، وألف في ذلك كتباً، فكان ـ حقاً ـ هو المجدد في عصره وفي العصور التي تليه، وما رأيت حركة إصلاحية بعد عصر الصحابة والتابعين والأئمة المشهورين مثل حركة ابن تيمية، ومن أجل روح التجديد قام المقامات الشريفة والمواقف الجليلة، وأوذي بسبب هذا التجديد، وبسبب الدعوة الإصلاحية، ونُسب إليه أنه يخالف الأئمة ويختلف عن السلف، وهذه تهمة كاذبة لا أصل لها، بل هو الذي نصر مذهب الأئمة الكبار، وهو الذي أعاد الناس إلى منهج السلف، وهو الذي أوضح السنة وجدد أمر الدين، فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء.

ابن تيمية والشمول

كثير من أهل العلم من يبرع في مسائل أو في باب أو في تخصص أو في علم من العلوم، أما هذا الإمام فإنه ـ في رأيي ـ برع في العلوم كلها، فهو متمكن في باب المعتقد، وفي الفقه، وفي الحديث، وفي التفسير، وفي أصول الفقه، وفي اللغة، وفي النحو، حتى إنَّ من اللطائف أن أهل الفنون يستشهدون بكلامه؛ كابن هشام صاحب (شذور الذهب) الذي استشهد بكلام ابن تيمية في النحو، وكان يُعاد إليه في اللغة، وكان يُسأل عن الرجال في علم الحديث، وكان يُناظر كبار الأئمة في أصول الفقه، ويعلو عليهم ويغلبهم، ورد على الفلاسفة وكتب كتاباً في المنطق، وقال بوهم أصحابه في كثير من المسائل، وتكلم في علم الهيئة، وفي علم الفلك، ومن يقرأ كتبه يُصاب بدهشة من عمقه، وعلو كعبه، وسعة دائرته في العلوم، واتساع ذهنه في المعارف، حتى صار قصة في هذا الباب، وأعجوبة في هذه القضية .

ابن تيمية والأولويات

الحكمة موهبة يهبها الله من يشاء، وهي السداد في القول والفعل، ووضع الأمور مواضعها وإتيان الأمور من أبوابها، وكذلك كان الشيخ؛ فمثلاً في باب العلم كان يقدم الأول فالأول، فتجده مهتماً بمسألة التوحيد الكبرى التي هي أعظم مسألة في العالم، وأجل قضية في الكون، فكان ـ رحمه الله ـ يبسط القول في مسائل المعتقد، ويوضح ذلك أتم التوضيح، ويجاهد من أجله ويناظر عليه، وكان يلتمس العذر في مسائل الفروع، لكنه لا يهادن في مسائل الأصول ولا يلاين ولا يتنازل عن شيء، بل يوضح التوحيد بأبوابه ومسائله أوضح بيان، ويدعو إليه، ويغضب إذا خولف في ذلك وينتصر له أتم الانتصار، ويلوم ما وقع فيه الكثير من التهاون في باب توحيد الباري سبحانه وتعالى، وما حصل نتيجة ذلك من انحراف وابتداع، فكانت جُل كتبه في الأصول، وغالب بحوثه في المعتقد، حتى نظَّر للمعتقد ـ سواء في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات ـ تنظيراً، وقعَّد له تقعيداً، وأصل له تأصيلاً استفاد منه الملايين بعده ـ رحمه الله ـ، وصارت كتبه هي المرجع في المكتبة الإسلامية لمن أراد أن يتعمق ويكتشف أسرار الإيمان والمعتقد.

ابن تيمية والعبقرية

إذا لم يكن هذا الذكاء بعينه

فإني بألقاب الذكاء كفورُ

وإن لم تكن ألقابكم عبقرية

إذاً فشهود العبقرية زورُ!

إن لم يكن ابن تيمية عبقرياً فلا أدري من العبقري؟! وإذا لم يستول على منصب الألمعية فليس لأحد أن يترقى هذا المنصب!، وإذا لم يكن هو الذكي اللمّاح إذاً لم نسمع بعد الصحابة بذكي لمّاح! إن من أجلّ ما استوقف المؤرخين والكتبة وأهل السير والباحثين في سيرة هذا الإمام عبقريته الفذّة، فقد أفاض الله عليه من أسباب الذكاء وموهبة الفهم ما صار حديث الناس وقصة السمر لهم، سواء الموافق منهم أو المخالف، ورأيت كثيراً من أعدائه وحساده يذعنون ويعترفون بنبوغه، وبقوة ذاكرته وبحافظته الفياضة، لكنهم يخالفونه في المسائل حسداً من عند أنفسهم، وبغياً من لدنهم، والشاهد أنه لا يختلف الصديق ولا العدو على أن ابن تيمية كان عبقرياً

بمعنى الكلمة، حتى إن بعض الغربيين كتب عن سيرته، وأفرد بعض المستشرقين بحوثاً عنه، وتناولته دور المعارف والمجامع العلمية بالدراسة والتحليل، وأُلف في سيرته مئات التآليف؛ فمنهم من يأتي بابن تيمية في باب الدليل، ومنهم من يأتي به في باب المحادة والمجادلة، ومنهم من يذكرُ سيرته على وجه العموم، ومنهم من يتناول مسألة المعتقد أو أصول الفقه عنده، ومنهم من يأخذ مسألة فحسب، ويبحث عن حياة هذا الإمام وعن جهوده في هذه المسألة، ومنهم من يتناوله مؤلِّفاً أو فقيهاً أو مناظراً أو مجاهداً أو محدثاً أو مفسراً، كل ذلك من الأدلة القاطعة على عبقرية هذا الرجل، ولا أعلم عالماً بعد ابن تيمية - إلى الآن - أتى في قدره، وفي علو منزلته، وفي ارتفاع مكانته، وفي سعة علومه ورسوخه العلمي وعمقه المعرفي، لا أعلم عالماً مثل ابن تيمية منذ أن نشأ هذا الإمام إلى الآن، وقد تصفحت كثيراً من التراجم، وعدت إلى كثير من السير لأجد من يشابهه أو يمكن أن يقارن به من قَرْنه الذي عاشه حتى الآن، فلم أجد ذلك، ووجدت من شهد هذه الشهادة من العلماء وقالوا: لن يتكرر هذا الإمام!، لكن الله عز وجل قدير، وفضله

واسع، إلا أن هذه الحقيقة تفرض نفسها؛ وهي أنه فرد في بابه منذ أن نشأ إلى الآن، أي فيما يقارب سبعة قرون، وإذا كان للمعتزلة عظيم في كل ألف ـ كما قالوا عن النظّام ـ، فإن العظيم من عصر ابن تيمية إلى عصرنا هذا هو شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه، فغفر الله له ورحمه .

ابن تيمية ليس مقلداً ولا متعصباً

العالم ليس مقلداً، والمقلد ليس من أهل العلم؛ لأنه لا يقلد إلا من ضعفت بصيرته، أو قل ذكاؤه، أو ضحل علمه، ولم يكن ابن تيمية كذلك، بل هو الذكي الأريب العالم المتبحر البصير بدينه؛ ولذلك كان ـ رحمه الله ـ مجتهداً يعمل بالدليل، ويستنبط بنفسه بعد أن فتح الله عليه، ولم يكن متعصباً لقول أحدٍ من أهل العلم، إنما كان قصده الحق ومطلبه البرهان، فكان يذهب مع الدليل أينما ذهب، وقد رأيت في كثير من المسائل أنه يرجح غير المذهب الذي نشأ عليه وهو المذهب الحنبلي؛ فأحياناً يرجح الحنفي أو المالكي أو الشافعي، أو يأخذ قولاً غير الأقوال الأربعة إذا رأى أن الدليل يسانده ويسعفه، فليس من متعصبة الفقهاء الذين يُغلِّبون أقوال أئمتهم، ويرجحون مذاهبهم بالتشهي والهوى ولو خالف الدليل، بل كان سائراً مع المذهب الحق، طالباً الحقيقة، معتصماً بالكتاب والسنة، لا يرى إلا الدليل مِنْ قال الله وقال رسوله عليه الصلاة والسلام، ويوصي بذلك في كتبه ورسائله .

إخماله لمعاصريه

من المدح الذي يشبه الذم لابن تيمية أنه أخمل معاصريه من أقرانه وزملائه وكانوا نجوماً في العلم، ولكن طلعت شمسه فاختفى كل كوكب، كما قال النابغة:

فإنك شمس والملوك كواكبٌ

إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ!

فكان ابن تيمية ـ بحق ـ رجل المرحلة، فلما ظهر لم يكن لغيره ما له من الصيت والصولة والجولة والمكانة والمنزلة، فصار حديث المجالس ومشغل الدول، وكان حديث الركب حتى ضُرب بعلمه وبذكائه المثل، فالذين كانوا أئمة في عصره كالمزي والذهبي والبرزالي، أو من أصحابه وطلابه كابن كثير، أو من أقرانه كالسبكي والزملكاني، وغيرهم كثيرٌ لم يكن لهم ذاك الاشتهار والانتشار مثل ما له، بل كان بعض هؤلاء الأئمة الكبار إنما يشتهر لأنه صاحب ابن تيمية، أو طلب العلم عليه، أو رافقه، أو رد عليه وعارضه.

ابن تيمية وفقه التيسير

الدين يسر، ومن أعظم صفات الدين أنه سهل لا صعوبة فيه ولا تعقيد، والله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وقد فهم ابن تيمية ذلك، وفقه هذه المسألة أتم الفقه، فكان ـ رحمه الله ـ يسيراً سهلاً في فتاويه، وفي أحكامه الصادرة، وفي مناقشاته، يدرك اليسر في دلالة النصوص، وفي مقاصد الشريعة، فتجده إذا تكلم في أبواب المعتقد أتى بأيسر المسائل، وبين لك أن الدين أتى لرفع الحرج ووضع الآصار والأغلال عن الأمة، وتكلم عن مسائل العفو والتوبة والمسامحة والمغفرة والرحمة، وإذا تكلم في الفروع أتى بالرأي الأيسر الذي يسعفه الدليل، فكم من مسألة شاقة إنما جاءت مشقتها من أهل الفقه كالمسح على الخفين مثلاً، أو القصر في السفر والفطر فيه، أو غير ذلك من مسائل الطهارة، أو الصوم، أو الصلاة، أو الزكاة، أو الحج، أو غيرها من المعاملات، فيأتي هذا الإمام فيبيّن أن هذه المشقة ليست في كلام الله عز وجل ولا كلام رسوله ﷺ، وأن الصحيح في هذه المسألة كذا وكذا، فيكون قوله هو أسهل الأقوال في الباب، مع العلم أنه لم يخرج

عن الدليل وإنما كان الدليل معه ـ رحمه الله ـ، فلابد أن تكتشف هذا الأمر في بحوث ابن تيمية، وفي كتبه، وأن تعلم أنك إذا قارنت كلامه بكلام غيره من الفقهاء والأئمة والعلماء ظهر لك أن قوله ـ في الجملة ـ أيسر الأقوال وأسهلها وألينها وأحسنها وأقربها للدليل .

نقضه بالدليل لكثير من المسائل المقررة

كم من مسألة قررت في كتب الفقه وبخاصة كتب المذاهب، وجاء هذا الإمام وبيَّن أن الحق في خلافها؛ خذ مثلاً المذهب الحنبلي الذي نشأ عليه ابن تيمية وأهل بيته، كم من مسألة قررت ودرسها الناس ونشأ عليها طلبة العلم، فلما جاء هذا الإمام بيَّن أن الحق خلافها، فالحنابلة - مثلاً - يبدؤون كتب الفقه بقولهم: المياه ثلاثة أقسام، فيخطئم ويقول المياه قسمان فقط: طاهر ونجس، ويقولون - مثلاً - إذا اشتبهت ثياب طاهرةٌ بنجسه صلى بعددها وزاد صلاة، فيبين أن هذا خطأ، بل على المصلي أن يتحرى ولا يلزمه أن يصلي بعددها، والمسح على الخفين اشترطوا فيه شروطاً ليست في الكتاب ولا في السنة فيبين أن هذا من الآصار والأغلال، واشترطوا مسافة محددة بالأميال في السفر، فيبين أن هذا ليس موجوداً في الكتاب ولا في السنة، بل لا يسمى سفراً أيضاً، وفي مسائل الحيض أتوا بمسائل شاقة على المرأة بين أن السنة خلاف ذلك بالدليل والبرهان، وفي مسائل المعاملات والبيع والشراء والصرف والإجاره وغيرها من الأبواب بيَّن ونقض

كثيراً من المسائل بالدليل والبرهان، ولم يأبه بقول أحد إلا بقول الله عز وجل وقول رسولهﷺ، فكان يعظم هذا النص ويحترمه ويوقره ويعمل بمقتضاه .

معرفته لأسرار السيرة

هذا الإمام ملم بسيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه، عارفٌ بدقائقها، مطلع على تفاصيلها، قضية قضية، ومسألة مسألة، والعجيب أنه إذا تكلم في الخلافة والملك وقضايا الصحابة والمغازي والسير والملاحم لا يوردها إيراداً فحسب، بل يقف وقفة مستبصرٍ متفقه عالمٍ، ويُخرج لك كنوزاً وهو يكتب في هذه القضايا، دون أن يُسبق إلى هذه الكنوز التي يستخرجها؛ أذكر على سبيل المثال أنه ذكر حديثين عن الرسول ﷺ:

الحديث الأول: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين...**» الحديث.

والحديث الثاني: «**اقتدوا باللذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر**». وكلا الحديثين في السنن، قال أما الأول فإنه أمر الرسول ﷺ بالاقتداء بالأربعة الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي؛ لأنهم على هداية في الجملة؛ ولأنهم من أفضل الصحابة رضوان الله عليهم أو كما قال، ثم خصص ﷺ أبا بكر وعمر في الحديث الثاني؛ لأنه كمل زهد أبي بكر وعمر في

الرئاسة والمال، وأما عثمان فتأول في المال، وأما علي فتأول في الدماء، فخصص ﷺ أبا بكر وعمر بتمام اتباعهما وكمال رشدهما رضي الله عن الجميع.

وفي مسألة أخرى لما ولى أبو بكر خالد بن الوليد، ثم لما تولى عمر الخلافة نزعه وعزله وولى أبا عبيدة، قال ابن تيمية في ذلك: إن أبا بكر رجل لين رقيق يصلح له رجل قوي شديد وهو خالد بن الوليد، وإن عمر قوي شديد يصلح له رجل لين رقيق وهو أبو عبيدة، فبين أن من السياسة الشرعية أن يكون الخليفة والقائد على خلاف في بعض الصفات، ليكتمل أمر الأمة في اللين والقوة والشدة، إلى غير ذلك من الأسرار التي ذكرها في كتبه ـ رحمه الله ـ.

لماذا لم يُفسر القرآن كاملاً؟

طلب من ابن تيمية أن يفسر القرآن، فردَّ بأن غالب القرآن واضح معلوم للقارئ، وإنما هناك آيات تحتاج إلى شيء من البيان والتفسير، وهذا الذي قاله صحيح، مع العلم أنه يُنسب إليه أن له تفسيراً كاملاً فالله أعلم بذلك، لكن في الجملة لم أرَ له إلا تفسير بعض الآيات في القرآن، واشتغل ـ رحمه الله ـ بالتأليف والفتيا وتأصيل المعتقد والذب عن السنة والرد على الطوائف، ولكن العجيب أنه إذا أتى إلى آية وأراد شرحها جاء بشيء لا يوجد ـ غالباً ـ في كتب التفسير؛ من براعة الاستنباط وحسن الاستدلال وعميق الفهم ورسوخ الفقه، وربما سال قلمه فأكثر في الآية وأورد إيرادات واستشكل إشكالات وحلها وبين الصواب في ذلك، وربما رد على كبار المفسرين وناقشهم من حيث الدلالة واللغة، ومن حيث المقاصد الشرعية، ومن أراد أن ينظر في ذلك فلينظر إلى الأجزاء التي جُمعت له في باب التفسير، مع العلم أنه نُسب إليه أنه فسر ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ على المنبر في الأسبوع مرة واحدة يوم الجمعة فيما يقارب ثلاثين سنة، فدخل في الرسالة والرسل، وأتى بكلام عجاب، كُتب بعضُه وبعضه لم يُكتب.

لماذا لم يؤلف ابن تيمية كتاباً جامعاً في الفقه؟

لم يُعلم عن ابن تيمية أنه ألف كتاباً جامعاً في الفقه من أول أبوابه إلى آخره؛ لأنه كان مشغولاً بقضايا أهم؛ فهو يرى أن كتب الفقه موجودة على المذهب، وأنها مبسوطة ومختصرة ومتوفرة، لكن الأهم من ذلك ـ كما يبين هو ـ مسائل الأصول في المعتقد، ونصرة السنة، والرد على المخالفين من الكفرة والمبتدعة الضلال، وكان هذا شغله الشاغل، فلم يكرر نفسه أو يكرر المكتبة الإسلامية، بل جاء بالجديد المؤصل النافع المفيد، وأتى بشيء لم يكن موجوداً من قبله، وسد على الأمة فراغاً كبيراً، وبنى لها صرحاً من التأصيل العلمي والتأليف النافع المفيد. ولم يشرح ابن تيمية كتاباً ـ فيما أعلم ـ إلا (العدة)، شرح منه جزءاً، ولكنه لم يشرح كتاباً فقهياً كاملاً من أوله إلى آخره على حد علمي؛ لأنه اشتغل بما هو أهم وأعظم كالدعوة ونشر العلم والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التفاؤل والرجاء عند ابن تيمية

صدرُ ابنِ تيمية منشرح، ونفسه قوية واثقة بربها سبحانه وتعالى، وهو صاحب ثقة فيما عند الله عز وجل، ومتفائل بالنصر دائماً والعاقبة الحسنة لأولياء الله، وهو حسن الظن بربه، وينظر بنظرة متفائلة للأمور، وهو صاحب رجاء؛ فإذا تكلم فيما أعد الله لأوليائه أسهب وأطنب، وإذا تكلم عن أهل التوحيد بيّن ما لهم عند الله عز وجل من مصير مبارك، وإذا تكلم عن التوبة رغَّبك في رحمة الله عز وجل، وحبّب إليك الإنابة، وقرَّبك من المغفرة، ودلَّك على طريق العودة إلى الله عز وجل، لا تقرأ في كلامه اليأس، ولا تفهم منه القنوط، ولا تجد فيه إحباطاً، كما يفعل بعض غلاة الصوفية الذين يقتلون النفس بكثرة التأنيب وسياط التأديب، ويكثرون من النقول في مسألة الخوف حتى يصاب الإنسان بالإحباط والقنوط واليأس من روح الله، فيترك العمل، لكنك كلما قرأت لابن تيمية وجدت نشاطاً وانبساطاً وراحة وقوة على العبادة وعلى الذكر، وزال عنك الهم والغم والحزن، وهذا أمر مجرب شهد به أصحابه وطلابه، ومن شك في ذلك فليأخذ فترة من فترات الزمن ويبقى على اتصال بكتب هذا الإمام، ثم ليأخذ فترة أخرى ويقرأ لغيره، ليجد البون الشاسع في هذه المسألة الكبرى.

ابن تيمية والشعر

الأدب ـ في العموم ـ قالب جميل وحسن يقدم فيه العالم علمه، وابن تيمية صاحب عبارة أخاذة آسرة ساحرة في الجملة، ولكنه لم يكن شاعراً بالمعنى الحقيقي، ربما نظم القصائد والأبيات واستشهد لغيره وأتى بالشاهد الشعري في موضعه، وربما استشهد لكبار الشعراء كالمتنبي وغيره، ولكن بحد وباقتصاد، وربما شرح البيت الذي يورده، فيأتي بشاهد على كلمة في اللغة، أو بدليل لرأيه، أو بنقل لكلام غيره من النظم، معترضاً عليه إن كان مما يقبل النقض، ولكنه ينظم الشعر إذا أراد؛ فقد كتب قصيدة رد فيها على يهودي في أكثر من مائتي بيت في جلسة واحدة، وكان يكتب المقطوعات التي فيها الدعوة إلى الله عز وجل، وبيان مذهب الحق، وربما استشهد بالبيت البعيد في مسألة المحبة والخوف والرجاء، وهذا من الاستشهاد الإشاري.

ابن تيمية والأمثال

إذا أسهب ابن تيمية في الحديث أورد بعض الأمثال التي سارت في الناس، أو أنشأها من نفسه هو؛ مثلاً تحدث عن (البطائحية) في وجود أصحابه وطلابه ـ والبطائحية فرقة صوفية ضالة، كان عندهم شيء من الإسلام، فكانوا إذا ذهبوا إلى الكفار من التتار ظهرت بعض الكرامات لهم، فإذا جاؤوا إلى أهل السنة بطلت كراماتهم! ـ فقال شيخهم له: ما لنا إذا ذهبنا إلى الكفرة التتار ظهرت كراماتنا وإذا أتينا إليكم بطلت؟ قال: مثلكم ومثلنا ومثل التتار كخيل دُهمٍّ ـ يعني فيها شيء من البياض ـ إذا دخلت بين خيل سود ظهرت بيضاء، وإذا دخلت في خيل بيضاء ظهرت سوداً، فأنتم دُهمٌّ؛ لأن عندكم «شيئاً» من الإسلام، والتتار سود لما عندهم من الكفر، ونحن بيض لما عندنا من نور السنة، فإذا ذهبتم إلى التتار ظهر بياضكم الباقي عندكم فصرتم بيضاً، وإذا أتيتم إلينا ظهر سوادكم لظهور السنة ووضوح الحق لدينا، قال: فتعجب الأصحاب من مَثَلي!. وسمع صوفياً يقرأ (فخر عليهم السقف من تحتهم)!، فضربه وقال: لا عقل ولا قرآن!؛ لأن العقل يدل

على أن السقف من فوق، والقرآن فيه ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾. وله أمثال في ذلك لا يتسع المقام لذكرها، مما يدلك على سعة دائرة الرجل، وعلى فهمه وبراعته وذكائه، واستخدام كافة الثقافات في تقوية ما يدعو إليه وما ينشره في الناس من علم.

كتب ابن تيمية بين العامة والخاصة

لابن تيمية كتب لا يفهمها إلا الجهابذة العباقرة كـ (درء تعارض العقل والنقل)؛ فإن فيه من المسائل الشائكة، وقوة الاستدلال، وصعوبة العبارة، ما يرد بها على أهل الفلسفة وعلماء المنطق، ونجده ـ وهو يرد على هؤلاء ـ يوغل ويسهب ويتعمق في مسائل لا يدركها العلماء العاديون أو صغار طلبة العلم، فضلاً عن العامة، فهذه ميزة ابن تيمية؛ يوجه الخطاب للناس على كافة المستويات، فله كتب يخاطب بها خواص الناس، وله كتب ميسرة سهلة ككتاب (الواسطية) أو (منهاج السنة أو (اقتضاء الصراط المستقيم) أو (الصارم المسلول على شاتم الرسول) ﷺ، وغير ذلك، فميزته أنه لكل الطوائف؛ فمن أراد الإيغال والعمق والدقة فله كتب، ومن أراد السهولة والشرح والبسط فله كتب، وغالب رسائله وفتاويه في (الفتاوى) تفهم من العامة إذا قرئت عليهم من أول وهلة؛ لأنه يوضحها ويسهلها ويجليها ويقربها، بخلاف غيره من العلماء، فإن بعضهم إذا ذهب وراء التخصص الدقيق كعلم المنطق أو الفلسفة أو أصول الفقه أغلق العبارة، وتكلم إلى طائفة

خـاصـة، ثم لا يسـتطيع أن يخـاطب العـامـة، وبعـضـهـم إذا تكلم للعامـة بسـط العبارة وشـرحها، ولكنـه لا يـرتقـي أسلوبه ليـخاطب به خاصة أهل العلم والندرة الذكية منهم .

ابن تيمية ومسألة التكفير

ابن تيمية معتصم ـ كما قلت ـ بالدليل، عامل بالبرهان كتاباً وسنة، مطلع على أسرار الشريعة، عارف بمقاصدها؛ ولذلك كان كلامه في التكفير من أحسن الكلام، حتى إن له من الجدة في الحديث في هذا الباب، والبراعة في التأصيل، ما لا تجده عند غيره، فقد نظَّر لهذه المسألة، وأورد عليها أمثلة، وطرحها بشتى الطروح، وعدَّد الأساليب في ذكرها، فاشترط وجود الأسباب في التكفير، وانتفاء الموانع، وجاء بمسألة الخطأ، ومسألة العذر، ومسألة التأويل، ومتى يكون التكفير، وتكفير المعين، وماذا يمنع التكفير، والقول المكفر، والفعل المكفر، وغير ذلك، حتى صار كلامه مرجعاً في الباب، ورأيت من ألَّف في مسائل التكفير أو ذكرها من الأئمة المعاصرين أو المتقدمين من بعد ابن تيمية، فإذا هو يعود إلى هذا الإمام، ويستشهد بكلامه، ويقبل قوله، ويحتج برأيه في هذه المسألة العويصة .

التسلسل الفكري عند ابن تيمية

ابن تيمية لا يخلط الأوراق، ولا يورد الكلام على عواهنه، بل يبدأ المسألة متدرجاً فيها من أولها إلى آخرها، كالباني الذي يبني لبنة لبنة، وكالذي يصعد السلم درجة درجة؛ فهو يبدأ بك من أول المسألة مؤصلاً لك، ثم يأخذ بيدك نقطة نقطة، وفصلاً فصلاً، وباباً باباً، حتى ينتهي بك، فلا يدخل الكلام بعضه في بعض، ولا يعاضل في الحديث، ولا يكون في كلامه ارتجاج، بل تجده ـ مثلاً ـ إذا تكلم في مسألة الإيمان، أو مسألة الكفر، أو البدعة، أو الفسق، أو غيرها من المسائل، بنى كلامه بعضه على بعض، حتى يظهره لك في وحدة موضوعية، ويقيمه أمامك كلية علمية، وأصلاً فكرياً أثرياً يمكن أن تجعله بحثاً مستقلاً. وقد رأيت له بحوثاً في (الفتاوى) عن سجود السهو والنوافل والأذكار والصدقة وغيرها، فوجدت أنها بحوث متكاملة، ربما لو انفصلت في رسالة (ماجستير)، أو (بحث جامعي) لكفَتْ وشفَتْ، ولما وجدْتَ معترضا.

ابن تيمية المجتهد المطلق

يقول بعض الفضلاء: إذا لم يكن ابن تيمية مجتهداً مطلقاً فلا ندري من هو المجتهد المطلق؟، فكل ما ذكره أهل المذاهب والعلماء في شروط المجتهد توفرت في ابن تيمية مجتمعة، وزاد عليها في شروطه؛ فإنْ ذكروا الحفظ فهو آية في الحفظ، وإنْ ذكروا الفهم فهو مضرب المثل في الفهم، وإنْ ذكروا معرفته بالمقاصد فهو إمام يُرجع إليه في ذلك، وإن ذكروا علمه باللغة فحسبك به، وإن ذكروا قدرته على الاستنباط فهو الغاية في هذا الباب؛ فكان ـ بحق ـ مجتهداً في الاستنباط، ومثله يكون مرجعاً في مسألة الاجتهاد، وقد تكلم فيها هو وأوعب الحديث فيها إيعاباً، وأملى فيها فصولاً، وتكلم بإطناب عن الاجتهاد والتقليد، ومن يتتبع فتاويه ورسائله يجد أنه بلغ الغاية في الاجتهاد، حتى إنه لحظ على بعض الأئمة الكبار الخطأ في كثير من المسائل وفي الاستدلال؛ وبين سبب خطئهم فيها، وغلَّطهم في بعض القضايا، وبيَّن غلطهم بالدليل والبرهان والحجة الدامغة التي لا تقبل الرد، وقد أثنى عليه كثير من الأئمة ممن ترجموا له كالذهبي، وكالشوكاني في (البدر الطالع)، وذكروا أنه الغاية في هذا الباب ـ رحمه الله ـ.

ثناء الأصدقاء والأعداء عليه

لا يجتمع الناس في الثناء على رجل إلا وقد فاق الأقران، وابن تيمية من أكثر العلماء الذين حصل لهم حظوة، ووجدوا محبة وقبولاً من الناس، فأما أصدقاؤه وأحبابه وطلابه فحدِّث ولا حرج، فمنهم من قال العبارات التي صارت كالأمثال؛ كقول بعضهم فيه: لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه لصدقت وما حنثت، وكقول ابن حيان المفسر الأندلسي: أنه لم يَرَ مثل ابنِ تيمية في الناس أبداً، وقول يُنسب لبعض العلماء أنه لما رأى ابن تيمية قال: ما أظن أن الله يخلق مثلك!، فغضب ابن تيمية لمبالغته في الكلام، وقول يُنسب للمزي أنه قال: لم يأت مثل ابن تيمية من خمسمائة سنة، وكلام لو ذهبنا نجمعه لخرج لنا مجلدٌ كبيرٌ من الثناء الحسن على إمامته، وزهده، وصدقه، وتواضعه، وبراعته في التأليف وفي الفتيا، وجهاده، ودعوته، وإصلاحه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وشجاعته، وكرمه، وتقشفه، وغير ذلك من أخلاقه التي أُلِّفت فيها الكتب؛ فقد ألف البزّار وابن عبدالهادي وأناس من المعاصرين بحوثاً ورسائل وكتباً فيه، والعجيب أن الأعداء

أثنوا عليه ببعض الجوانب؛ لأنه أصبح كالشمس كما يقول المتنبي:

وكــيف يصح في الأذهان شيءٌ

إذا احـتـاج النهار إلى دليل؟!

فحتى أعداؤه من أقرانه وصفوه بالحفظ، ومنهم من وصفه بالزهد، ومنهم من وصفه بالتمكن، بل العجيب أني سمعت عالماً من علماء السنة لقي عالماً شيعياً وتباحثا في كتاب ابن تيمية (منهاج السنة) الذي رد فيه على الرافضة، فوجد الشيعيَّ منزعجاً من هذا الكتاب، ولكنه كان يقول للسُني: لو أن عند كل طائفة رجلاً مثل ابن تيمية لوجب على هذه الطائفة أن تفتخر بهذا الرجل وتتشرف، وحق لكم أنتم يا أهل السنة أن تفتخروا بهذا الإمام وتتشرفوا به، وكثير من الطوائف ـ حتى من المخالفين ـ تعجب من ذكائه ونبوغه، وذهل من عبقريته؛ لأن المسألة أصبحت قضية ظاهرة ما تقبل اللبس ولا يختلف فيها اثنان، ولا يستطيع أحد أن ينكر الشمس إذا طلعت على الناس، أو يشكك في ضوئها، أو يشكك في نورها،

هذا لا يكون، ولذلك كان ابن تيمية فارضاً احترامه على الصديق والعدو، مثبتاً بجدارة أنه إمام يستحق الاهتمام والاعتبار والإنصات والإعجاب، وكان مقصده ـ رحمه الله ـ ما عند الله عز وجل، فحصل له ـ إن شاء الله ـ ثواب الآخرة، والثناء المستمر في الدنيا، وهذا لسان الصدق في الآخرين.

ابن تيمية رجل المرحلة

لا شك أن الله سبحانه وتعالى هيأ الظروف والأحوال لخروج مثل هذا الرجل الإمام المجدد، إذ كانت الحياة السائدة في عهده حياة تدعو إلى الرثاء، وتستجدي بزوغ نجم مجدد مصلح كبير، يكون في مثل عقل ابن تيمية، وعلمه، وخشيته، وشجاعته، لقد كانت الحالة العقدية بها غبش في التصور؛ فظهر الشرك عند القبوريين الذين يطوفون متبركين بالقبور، كما ظهر كثير من الكهنة والمشعوذين والسحرة والدجالين والأفاكين، ووجد كثير من المبتدعة بشتى مشاربهم ونحلهم ومذاهبهم الخاوية المنحرفة، واستشرى فساد سياسي يتمثل في الظلم من الحكام، والجهل بالشريعة، كما ظهر الفساد في القضاء من انتشار للرشوة، وجهل بالشريعة، وحيف وجور وظلم، وكذلك الفساد في المنهج الفقهي من ركود، وتعصب، وتقليد مقيت، وجهل بالنص، وبعد عن الدليل، وبرز الفساد في مسألة الأدب؛ حيث تراكم نتاج شعراء أفسدوا في المسيرة الأدبية، وانحرفوا عن الجادة؛ لما تركوا من لغوٍ آثم، وتركة فاسدة منحرفة عن الصراط المستقيم، من الفجور والإلحاد

والفسق والعصيان، كما وجد من يصد عن منهج الله عز وجل في المجتمع ممن يدعو إلى انغماسه في الدنيا بحاله ومقاله، وممن يدعو إلى ترك السنة، وممن ينصب نفسه للناس إماماً وهو ضال مضل، وممن يعطل الشرائع؛ كفرقة البطائحية، وكالنصيرية الضالة المنحرفة، وكأتباع غلاة المتصوفة، وأتباع ابن عربي الحلولي الاتحادي، وغير ذلك من أرباب المسالك الجائرة، فهيأ الله خروج هذا الإمام الذي أتى فملأ الزمان والمكان بالحق الموروث عن ولد عدنان ﷺ، والملهم من الرحمن، فأتى مصلحاً مجدداً.

فبدأ بالعقائد فأوضح الحق في هذه المسألة، ودعا دعوة تامة عامة كاملة للعودة إلى التوحيد الصحيح، وأنه أصل الأصول، فبين ووضَّح وشرح وردَّ ونقض كل شبهة ترد على هذا الأصل العظيم.

ثم أتى إلى الفقه فدعا الناس إلى الاعتصام بالدليل. مع توقير الأئمة، وبين في أول كتاب (الاستقامة) أن الناس في هذه المسألة طرفان ووسط: فطرف جمد على الظاهر ولم يحترم الأئمة ولم يشتغل بالاستنباط والفقه، وقابله طرف آخر

عظَّم أقوال الأئمة وأرباب المذاهب على حساب الدليل والنص، فغلا في التعصب وأفرط في التقليد، والصحيح الوسط وهو الاعتصام بالدليل من الكتاب والسنة وتقديم قول الله عز وجل وقول رسوله ﷺ على قول الرجال، كائناً من كان صاحب هذا القول، مع احترام الأئمة وعدم المساس بهم رضوان الله عليهم، وأتى إلى مسألة السنة فأوضحها للناس وبينها ودعا إليها بأقواله وأعماله وأحواله، ورد على كل من خالفها، كلٌّ بحسبه، وفتح باب خصومات مع أعداء السنة، فجابههم أتم المجابهة لما تقتضيه حكمته وبصيرته، وأوذي في ذلك كل الأذى وهو صابر محتسب متلذذ بما يصيبه في ذات الله، مستعذب العذاب في سبيله، فكانت العاقبة له، وهي سنة الله - عز وجل - في رسله عليهم الصلاة والسلام، وأتباع رسله إلى يوم القيامة.

ثم أتى إلى الفساد السياسي فدعا الحكام إلى العمل بشريعة الرسول عليه الصلاة والسلام، وشافه الحكام بهذه الدعوة وراسلهم وكاتبهم، ووجد من بعضهم الأذى، وحُبس في ذلك وأظهر دعوته، وكتب في ذلك (السياسة الشرعية)، ونهى عن الظلم، ودعا إلى تقديم الملة على الأحكام الوضعية

القانونية الأرضية، وأخبر بأنه لا يسع أحداً من الناس - سواء الملوك أو العامة - الخروج عن شيء من شريعة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقام في ذلك المقامات التي شهد بها القريب والبعيد، وزار السلاطين في بلاطهم، ودخل دواوينهم، وخطب بين أيديهم، وكاتبهم وراسلهم، وقام المقامات المشهودة عند العامة، في مجامع الناس، ونازل أعداء الشريعة وبارزهم في الميادين العامة، وفي المجالس الخاصة، وفي أماكن النظر، وفي محلات التدريس، فكان بحق شاغل تلك الفترة بالحديث والأخبار والأخذ والعطاء .

ابن تيمية وعلاقته بالدولة في عهده

لا شك أن ابن تيمية صحب في تلك الفترة السلاطين من المماليك ومن الأمراء الذين يتبعون للدولة العباسية في أواخر عهدها، عهد الانحطاط والضعف، وهؤلاء السلاطين نافذون في مصر والشام، وكان عندهم جور وظلم، وهم في الجملة مسلمون، فعاملهم بما يقتضي الحال من النصيحة والإرشاد والتوجيه، ولم يوافقهم على باطلهم، ولم يأخذ أعطياتهم، ولم يدخل في شيء من وظائفهم، ولم يتقلد لهم مناصب، ولم يتول لهم ولاية، وإنما كان همه إصلاحهم وإعادتهم إلى منهج الله عز وجل وإلى شريعة رسوله ﷺ، ولكنه في المقابل لم يخرج عليهم، ولم يدعُ إلى السيف والمبارزة ومقاتلتهم؛ لأمور منها: أنه يحتكم إلى الشرع الذي يدعو صاحبه ﷺ إلى عدم الخروج على الإمام والراعي المسلم ما لم نر كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان، فالمعاصي والجور والظلم لا تقتضي الخروج على الحاكم مهما كانت؛ لأن الخروج أعظم مفسدة من البقاء تحت ولايته، لما ينتج من ذلك من افتراق الكلمة، وسفك الدماء، وذهاب الأموال، وانتهاك الأعراض، والفساد في الأرض بكل

أنواع الفساد، فكان ذلك منهج ابن تيمية ومنهج أئمة الإسلام وعلماء الملة على طول التاريخ في تعاملهم مع الحكام الظلمة، وهذا هو المنهج الصحيح الذي أثبت صلاحه ونجاحه على مر الدهور والأعوام، وهو الموافق لشرع الله عز وجل.

لماذا لم يكوّن ابن تيمية جماعة

لم يُعرف عن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أنه كون جماعة، أو نظَّم فرقة معه، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، صحيح أنّ له طلاباً وأصحاباً، لكن لم يكن بينهم تنسيق وتنظيم حتى يصبحوا جماعة تُعرف بين الناس، لها خطتها ولها برنامجها، أبداً لم يحصل هذا، ومن قال ذلك فعليه الدليل، والمؤكد أن ابن تيمية لم يفعل ذلك؛ لأنه فعل فِعل علماء الإسلام وأئمة الدين ممن سبقه من أهل السنة، ولو أنه كوّن جماعة لاقتضى الحال أموراً:

فإما أن تنتظم هذه الجماعة في طاعة الدولة المعاصرة له وتنفذ أوامر السلطان في عهده فيكون هذا تحصيل حاصل؛ لأنها لن تأمر بالمعروف ولن تنهى عن المنكر إلا بإذن من السلطان، ولن تقوم بعمل شرعي عام إلا بسماح منه، فكأنها لم تفعل شيئاً، فالناس في عهده في الجملة لا يفعلون إلا بإذن السلطان، سواء من العلماء أو القضاة أو المحتسبين أو الدعاة، فما فائدة تكوين جماعة تأتمر بأمر السلطان؟ والناس كلهم أصلاً مؤتمرون بأمر السلطان فلم يكن هناك شيء جديد إذاً.

وإما أن تقوم هذه الجماعة بأمرها ولا تراجع سلطاناً ولا دولة، فتأمر بالمعروف متى شاءت، وتنهى عن المنكر متى شاءت، وتكوِّن لها منهجاً صالحاً سُنِّياً على نظرها دون أن تعود إلى سلطان أو دولة، وحينئذٍ لن ترضى الدولة المعاصرة، ولن يرضى السلطان، وسيقع التصادم، ثم يستمر الحال، فإما أن تمضي الدولة كلمتها وتنفذ أمرها، أو تأتي هذه الجماعة فتنفذ أمرها وكلمتها، وتمضي أمرها، وحينئذٍ يقع التصادم والاختلاف، وتقع الفرقة، وينتهي الحال إلى إراقة الدم، وهو ما حصل في بعض العهود من قيام جماعات قصدها نصرة الدين، ولكنها واجهت دولاً، فسفكت الدماء، وفتحت المعتقلات، ونهبت الأموال، وانتهكت الأعراض، ووقع فساد عظيم واختلاف وشر في الأمة، وهذا الذي منع ابن تيمية من تكوين جماعة أو فرقة، وكان الذي فعله عين الصواب، وهو الذي أثبت لابن تيمية قوته وجدارته، وترك له أثراً علمياً ودعوياً وإصلاحياً وتجديدياً مباركاً، وتركة طيبة من العلم النافع، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا هو المطلوب؛ فإن إقامة دولة مسلمة هو أمر مطلوب على العام والخاص، ولكن إذا لم

يستطع الإنسان إلا أن يكون في ظل دولة مسلمة، وعندها قصور وجور وظلم وأخطاء، فإن عليه أن يتقي الله عز وجل، وأن يعمل بالشرع في ذلك، وأن يدعو ويصبر، وأن يطيع في طاعة الله عز وجل ولا يوافق في المعاصي، لكنه لا يخرج عليهم، ولا ينابذهم السيف، ولا يدعو إلى الفرقة؛ لأن الشر في ذلك عظيم والفساد كبير.

أثر ابن تيمية في أصحابه وطلابه

من آثار العلم المبارك في حياة العالم أن يكون له أثر طيب على أقرانه وزملائه وأتباعه وأصحابه وطلابه، وهذا ما حصل مع ابن تيمية؛ فلا يُعلم في العلماء المتأخرين ممن أثر في أصحابه وطلابه من بعده من القرون كابن تيمية، فكان ينفع الله بمجالسه وبدروسه، وباللقاء به، وبمعايشته والسفر معه، ما شهد به أصحابه وما رأينا أثر ذلك في طلابه، حتى إن الواحد منهم كان في جهل وفي انحراف، حتى صحب هذا الإمام وغيره، فوجد من النفع العظيم، واستقامة الحال، وانشراح الصدر، وصلاح العمل، وسداد القول، والبركة في الوقت، ما صار تاريخاً يكتب، وما ذلك إلا لبركة هذا الإمام الأستاذ المعلم ـ رحمه الله ـ؛ فكان مبارك الأنفاس، تعود بركته على أصحابه، وهذا دليل على صدقه وإخلاصه، وإعمار أوقاته بالطاعة والنوافل والعبادات والأوراد بأنواعها، فصار قدوة في جهاده وصبره وصدقه وعلمه وحاله وزهده وتقشفه وجرأته وثباته وثقته بربه، إلى غير ذلك من الخصال الحميدة والأفعال المجيدة، التي سطرها هذا الإمام وصارت تاريخاً يُتلى

بعده إلى آخر الدهر؛ فقد رأينا ممن عاصره من العلماء من كان له طلاب ومؤلفات، ثم ذهب فكأن مؤلفاته أدرجت في أكفانه، وكأن طلابه ماتوا معه؛ لأمر علمه سبحانه وتعالى؛ لأنه أعلم بالسر وأخفى؛ وربما لأن هؤلاء العلماء تصدروا للدنيا وهو ما حصل بالفعل؛ فإن أحدهم كان يغضب للمنصب ويوصي السلطان أن يولي ابنه بعده، وكما يقول أحد المعاصرين: إن ابن تيمية ترك الدنيا وما فيها لأهلها وطلب الآخرة ممن يملكها سبحانه، أما المعاصرون له في الغالب فكان لهم عمائم كالأبراج، وأكمام كالأخراج، همهم الولاية والأوقاف، وجمع أموال اليتامى، والتصدر في المجالس، وحضور مواكب السلطان والفرح بالأعطيات، وجمع الأموال، وتكديس الخزائن، والشهرة في العامة، وطلب التبرك منهم، والانصياع لأوامرهم، وتنفيذ مراسيمهم، فذهبوا وانقرضوا وانتهوا وماتوا بآثارهم، وبقي هذا الإمام الذي عاش فقيراً، معدماً ولم يتول أية ولاية صغيرة أو كبيرة، حتى إمامة المسجد أو الأذان، فبقي في القلوب محفوراً اسمه، منقوشة حروفُ علمه في الأذهان والضمائر، وصار آية للسائلين، وقصة من قصص العبقرية، وأحدوثة من أحاديث التجديد واللموع .

من هم خصوم ابن تيمية؟

لابد لهذا الإمام ـ كما أسلفنا ـ من معارضين ومناوئين على كافة المستويات، والعجيب أن خصومه من العامة والخاصة، ومن المسلمين ومن غيرهم، فأعظم خصومه هم أعداء الملة الكفرة من الملاحدة واليهود والنصارى والصابئة والدهريين، إلى غير ذلك من أعداء الإسلام، وأعطى كل ما يستحقه من الرد والمقاومة والمجابهة، ومن المواجهة بالرسائل بالنقض، وكشف مستورهم الخبيث بالتشهير بهم، وبزلزلة مناهجهم الضالة، وبسحق شبههم، ودحض دجلهم بالوقوف في وجوههم بكل أنواع الوقوف، وأوذي في ذلك كل الأذى ـ رحمه الله ـ وكان له أعداء من الجهلة العامة، الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون، أتباع كل ناعق، الدهماء الغوغاء، فعادوه ونالوا منه، وهو يصبر على أذاهم، ويوضح لهم السنة، ويدعوهم إلى الحجة، ويبين لهم المحجة، صابراً محتسباً، حليماً صفوحاً مسامحاً، حتى جذب الكثير منهم وردهم إلى الجادة، وبين لهم الطريق المستقيم، فكان ينزل الأسواق، ويقيم الحدود، وربما قص شعور المخالفين، ونبه المطففين في

المكاييل والموازين والمرتشين والمرابين والغشاشين، كل ذلك بأتم البيان توضيحاً وإرشاداً ودلالة إلى منهج الله عز وجل ونشأ له أعداء من العلماء المعاصرين؛ حملهم على ذلك البغي والحسد، لما آتاه الله من علم ومكانة وقبول وصدارة إيمانية، ومواقف شريفة، ومقامات جليلة في نصر الملة، فقاموا عليه حسداً من عند أنفسهم؛ لأن الله ميزه عليهم، فنقموا عليه هذه المحلة، ووشوا به عند السلطان، وأفلحوا في سجنه وإلحاق الأذى به، لكن أجره عند الله عز وجل، ومكانته في القلوب.

وكتبوا ضده رسائل، واجتمعوا وأفتوا بسفك دمه، وسطروا رسائل تقول بضلاله، وقد كذبوا وافتروا وعقدوا له مجلس المناظرة، وأوغروا صدر السلطان عليه، وأوهموا العامة أنه مخالف لما كان عليه السلف، وجمعوا له كلاماً، وبتروا حديثه، وقطعوا كثيراً من كلامه عن سياقه في مؤلفاته، فظهر عليهم بالحجة، وانتصر عليهم بالدليل، وبين أنهم مخالفون للصحيح من الأقوال، كل ذلك وهمهم الدنيا وهمه الآخرة، لكن كانت العاقبة ـ والحمد لله ـ لهذا الإمام. وكان له أعداء من السلاطين الظلمة ممن يتبعون الشهوات، ويريدون أن تميل

الأمة ميلاً عظيماً، فهمهم ـ فقط ـ دنياهم ومناصبهم وظهورهم وشهرتهم وملكهم وبقاء العامة في أيديهم، ولا يعملون إلا ما سهل عليهم من الأعمال الظاهرة من العبادة، وقد حشوا من الكبر والرياء والعجب، وسفكوا الدماء، وأخذوا الأموال من غير حلها، وظلموا وجاروا، فقام لهم وتقعد لهم، ونازلهم، وخالفهم كل المخالفة في هذا، دون أن يترك فساداً في الأمة أو شراً مستطيراً في الناس، بل كان يدعو بالحجة وبالبينات التي أرسل الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام، وبالأحاديث الصحيحة وميراث السلف المبارك الذي كان يحمله.

ثم كان له أعداء من المبتدعة، وكانوا على درجات، لكنه لم يترك مبتدعاً إلا أعطاه حقه، من الرد بحكمة وبسداد، على حسب ما تقتضيه بدعة هذا المبتدع قرباً من السنة وبعداً، فللأشاعرة عنده ردٌ وكلام، وللمعتزلة رد أشد وكلام أكثر، وللجهمية رد أكثر وكلام أوفر، وللرافضة أيضاً رد بما يناسبهم، وللصوفية ولغلاتهم عنده رد أيضاً، وللإسماعيلية الباطنية رد ساحق ماحق، وللملاحدة والزنادقة رد قاتل

مميت، وقد بيّن الحق الذي اندرس في عهده، والذي ذهبت معالمه، فأحياه ـ رحمه الله ـ في دروسه، وفي مجالسه ومناظراته، وفي تأليفه ورسائله، حتى صارت السنة هي الظاهرة، وأصحابها هم السادة وهم أهل الحق، فأبان الله للعامة والخاصة أن هذا الرجل العظيم على نور من الله عز وجل، وعلى هدي من رسوله ﷺ، حتى إنه لما مات كانت جنازته آية للناس من كثرتها واجتماع الناس عليها وترحمهم وتأسفهم، حتى ذكر أن بعض اليهود والنصارى خرجوا فيها، وقيل إنَّ منهم من أسلم، وتاب كثير من العصاة وكان يوماً مشهوداً قلَّ أن يسمع بمثله في الدهر، وهذه من كرامات الأولياء، لأنه كان محقاً، صاحب سنة، على دليل وعلى برهان من الله عز وجل، فرحمه الله رحمة واسعة.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

Printing & Packaging